مستقبل اللغة العربية

بين مراهنات الأعداء ومقومات البقاء

بقلم الدكتور أحمد بن نعمان

كاتب، وباحث ـــ الجزائر

إن اللغة من الناحية الشعورية والوجدانية تمثل روح الأمة وأساس وحدتها، الثقافية والحضارية، كما تمثل الوعاء والوسيلة الناقلة للأفكار والتقاليد والخبرات عبر الأجيال المتعاقبة في الزمان على تاريخ الأ مم والشعوب، كما تعتبر من الناحية السياسية هي معا لم الحدود الحقيقية للرقعة الجغرافية الوطنية والقومية، وتعتبر من الناحية السياسية والسيادية هي أهم أسس الهوية ومكونات الشخصية والوحدة الوطنية لأية مجموعة بشرية، تعيش في انسجام على وجه الكرة الأرضية، على اعتبار ألا وحدة وطنية وقومية بدون وحدة لغوية ودينية . . .

إذا كانت اللغة كذلك، فلانها تعتبر أيضا، وبدون منازع، هي أفضل وسيلة للتفاهم بين الأفراد، والتعبير عن أفكارهم، وهي وإن لم تعتبر الأداة الوحيدة للاتصال بين الأشخاص، إلا أنها أداة لا غنى عنها لبني البشر لبناء الحضارات وتشكيل الأمم وتوحيد الأوطان، كما أن للغة أهمية كبرى لكونها أداة فعالة لشحن الذاكرة ونقل المعرفة والتعبير عن المفاهيم المعقدة، وفي ذلك يقول الباحث العربي نور الدين حاطوم: ((لقد أصبحت اللغة ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر من أهم المقومات المحددة لجنسية أي شعب أو **أمة**))[1] وهوما يؤكد ما قرره الفيلسوف الألماني (فيختة) قبله منذ أكثر من قرن بقوله : ((أينما توجد لغة مستقلة توجد أمة مستقلة، لها الحق في تسيير شؤونها وإدارة حكمها))[2] .

ولقد تأكد ذلك خلال القرن العشرين حينما لجأت الدول المنتصرة عقب الحرب العالمية الأولى في اجتماعها ((بفرساي)) إلى تعيين الحدود بين الدول على أساس المناطق اللغوية، وحتى عندما تتشابك الثقافات في المناطق الواقعة بين أمتين كبيرتين تكون اللغة عادة هي المعيار الذي يحدد شخصية الإقليم المتنازع عليه. وأن أحداث أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية المتنازع حولهما هذه الأيام في جورجيا، وهما المقاطعتان المتحدثتان بغير اللغة الجورجية، وقبلهما بشهور قليلة ـــ كما هو معلوم ـــ كانت كوسوفو في صربيا، لأبرز وأحدث الأمثلة على ذلك!!

وهكذا ظلت اللغة (وستظل كذلك) هي المفجر أو الصاعق الكامن وراء جل الصراعات العرقية والسياسية القائمة بين شعوب الدولة الواحدة، داخل حدود التراب الواحد، أو على الحدود الإقليمية والسيادية للأقطار المتجاورة في المكان، والمتغايرة في الولاء والشعور والوجدان، الناتج عن اختلاف استعمال اللسان، بصفته مرة للسياسة ووعاء للثقافة وعنوانا للسيادة في جميع البلدان كما أسلفنا ... وقد استعمل (موسوليني) هذه الحجة نفسها في مطالبته بضم جنوب ((تيرول)) إلى الدولة الإيطالية في عهده، بعد أن شجع الإيطاليين على الهجرة إلى تلك المنطقة ليصبح سكانها ناطقين باللغة الإيطالية . . .[3]

والمثال نفسه ينسحب على سكان مقاطعة الكبيك بكندا اليوم، حيث يتجاذبون، ويتميزون عن بقية المقاطعات الكندية الأخرى باللغة الفرنسية التي يعتمدونها لسانا قوميا لهم، وأساسا لهويتهم، ومبررا من ثم إلى مطالبتهم بالاستقلال والانفصال عن الوطن الكندي، كما حدث في الاستفتاء الذي نظم حول هذا الموضوع سنة 1995 ...

ولما كانت اللغة على هذه الدرجة من الأهمية، فإننا نجد صفاتها الوطنية والرسمية محددة عادة في مقدمة المواد الدستورية لأية دولة مستقلة ذات سيادة في العالم، مع إدراج المواد المتعلقة باللغة (الوطنية والرسمية) في الغالب، ضمن المواد الدستورية التي لا تقبل المراجعة والتغيير، لكون المساس بكنهها يعني المساس بقداسة الوجود المرتبط بها كدولة وكأمة ذات هوية متميزة بخصائصها في الوجود!.

فإن ذلك هو ما شاهد العالم وقوعه في الماضي، ويشهد وقوعه اليوم بين كوريا والصين واليابان، والصرب والألبان والفرنسيين والانجليز والألمان، والباسك في اسبانيا والكتلان، والفالون في بلجيكا والغلامان، والأكراد في العراق وسوريا وتركيا وإيران، والأوزبك والباشطون والطاجيك والهزارة في أفغانستان، والبلوش والسنهال والتاميل في سيلان والهند وبنفلادش وباكستان (...).

وكانت اللغة المستضعفة والمستهدفة من هذه الوجهة وبدون منازع، هي بيت الداء الذي ينخر الكيانات القومية الضعيفة لإزالتها من الوجود ... وكانت وحدة اللغة وقوتها في مقدمة كل دواء، لوقاية كيان الدولة ووحدة الشعب والأمة من التشتت والتمزق والتفرق، إلى كيانات مجهرية لا حصر لها، داخل الرقعة الجغرافية الواحدة، كما يتجلى ذلك على خريطة العالم المعاصر، المبسوطة كالحصيرة أمام كل ذي بصر وبصيرة...! وأبرز مثال على ذلك الدول الأفريقية (الفرنكوفونية والأنجلوفونية) المتصارعة ثقافيا وسياسيا وسياديا فيما بينها على مائدتي فولتير وشيكسبير، منذ أن تبنت ورسمت بعض دولها لغة جلادها السابق في الإدارة والسياسة والسيادة والتعبير!!

ولذلك فإن الذي يلفت نظر القارئ الكريم في عنوان هذه الدراسة، هي ثلاث عبارات أساسية تتمثل في: ((المستقبل)) و((مراهنات الأعداء)) و((مقومات البقاء))... وهي لا شك تستفزه وتثير فضوله لتدفعه إلى الاطلاع على مضامينها، خاصة في ضوء الحاضر الذي لا يوحي بأي مستقبل لهذه اللغة في واقع أبنائها بين من يريدون لها السؤدد ولا يقدرون، ومن يقدرون أن يرفعوا لها شأنا ولا يريدون، بل وقد يعمل بعضهم مع الأعداء على عكس ما يريده الأبناء الأصلاء من أصحاب العيون البصيرة والأيدي القصيرة، مثلنا معشر أصحاب ((أوسط)) الأيمان، في غياب استمساك الشعب بعصمة الطلاق والتطليق للحكام القادرين على التعيير بين يديه، وهو خلاف ما هم عليه(...)

ونظرا لأن كل معطيات الحاضر ومؤشراته في الظاهر لا تبعث على التفاؤل، بالنسبة لما يريده الأوفياء من الأبناء، فضلا عن أن الحديث عن موضوع اللغة الذي هو بامتياز (كما أسلفنا) من صميم الظواهر الاجتماعية المتصلة بحياة الأنسان وخصائصه، يكون من المثير جدا التجرؤ على التنبؤ بمصير سفينة تخوض عباب بحر لجي ذي أمواج عاتية يقودها ربان وسنان أو سكران من أصحابها، أو قرصان غاصب من غير أهلها، مما يجعل الحديث عن مصير السفينة ونجاتها إلى بر الأمان نوعا من المجازفة والرهان الذي لا يعضده برهان واضح للعيان يبرر ويقرب معنى ((مقومات البقاء)) في العنوان ! ؟

والعبارة الثانية هي ((الأعداء)) التي تتطلب هي الأخرى كذلك توضيحا للقراء، لمساعدتهم على الأدراك والفهم لمطابقة العنوان على المقال في المكان والزمان . .

فالأعداء المقصودون هنا بالدرجة الأولى هم أولئك الذين يحملون اسم هذه اللغة وأسماءها، وينتسبون، دينيا في غالبيتهم، وحضاريا في مجموعهم إلى الإسلام رغما عنهم وباعتراف النزهاء والأصلاء منهم، ونخص هنا بالذكر (كمثال فقط) المفكر السوري (المسيحي سابقا) ميشال عفلق، الذي يقول : ((لا يوجد عربي غير مسلم ! فالإسلام هو تاريخنا وهو بطولتنا وهو لغتنا وفلسفتنا ونظرتنا إلى الكون . . . إنه الثقافة القومية الموحدة للعرب مع اختلاف أديانهم ومذاهبهم . . . وبهذا المعنى لا يوجد عربي غير مسلم، إذا كان هذا العربي صادق العروبة، وإذا كان مجردا من الأهواء، ومتجردا من المصالح الذاتية. . . ولئن كان عجبي شديدا للمسلم الذي لا يحب العربية، فعجبي أشد للعربي الذي لا يحب الإسلام[4] .

ويؤكد ذلك مفكر مسيحي آخر من لبنان هو فكتور سحاب بقوله : ((إن النصراني لا يمكنه أن يكون عربيا إذا لم ينتم إلى حضارة الإسلام . فكيف يكون عربيا ذلك النصراني الذي لا يتكلم لغة القرآن، ولا يطرب للموسيقى العربية المتحدرة من التجويد القرآني، ولا يهتز قلبه للشعر العربي . . . إن النصراني العربي ابن الحضارة الإسلامية وليس أجنبيا عن التراث الإسلامي ... فنحن أبناء حضارة واحدة وهى حضارة متفتحة، بل لعلها أكثر

الحضارات انفتاحا على التأثرات الخارجية في العالم . . .))[5] . وهو ما يدعم مقولة الزعيم المصري المعروف (مكرم عبيد)، القائل: ((أنا مسيحي الديانة مسلم الوطن)).

ومع ذلك فإننا نجد أن من أعدى الناس في العالم للغتهم القومية هم العرب (مسلمون وغير مسلمين) ، وبصفة خاصة هم الحكام العرب (من حيث يريدون ويشعرون أو لا يريدون ولا يشعرون) باستثناء واحد منهم حسب علمنا إلى حد الأن مما جعل اللغة العربة تعاني من الإهانة والحرب من أعدائها الأجانب مثلما تعاني من بعض أبنائها الأقارب المتمثلين في هؤلاء الحكام المنتحلين ((للشخصية)) الذين يحملون أسماءها ولا يمثلون شرفها وقدرها، ولا يدافعون عن عنتها وكرامتها كما يفعل كل الحكام الحقيقيين للغاتهم الوطنية والقومية في العالمين!!

ذلك أن عداء الأجانب لهذه اللغة أمر طبيعي، ولا يتوقع غيره منهم، أما العداوة من هؤلاء الحكام الضرار فهم الذين حق عليهم القول ووجب التنبيه هنا إلى أن عبارة ((الأعداء)) في العنوان لها مدلول مزدوج، حيث تعني هؤلاء الغرماء الأغراب، كما تعني في الوقت ذاته أولئك العرب والأعراب بالأسماء والألقاب، الذين يعدون أنفسهم مستقلين وحكام دول ذات سيادة، وسياسة، وعضوية في منظمة الأمم المتحدة، وجامعة تحمل أسماء دولهم واسم لغتهم على الورق، لأن مبدأ السيادة الحضارية والقومية مفقودة، أو منقوصة على الأقل في الوطن العربي الذي هو في وضع يشن بشكل عجيب ومريب عن وضع كل بلدان العالم، من أصغر دولة إلى أكبر إمبراطورية، ومن أضعف لغة وأقلها استعمالا إلى أقوى لغة وأوسعها انتشارا على الكرة الأرضية . . . فوضع اللغة العربة لا مثيل له بين الأثنين، مقارنة بما تتوفر عليه هذه اللغة الفريدة من نوعها، التي لها من الخصائص الذاتية والموضوعية والتاريخية والحضارية والجغرافية والثقافية والدينية ...ما لا تضارعها فيه أية لغة أخرى في الوجود على الأطلاق، بشهادة بعض العلماء النزهاء من الأجانب والأبناء على حد سواء، وسنورد العديد من الأمثلة على ذلك في سياقه من هذه الدراسة.

وهذا هو مبرر وجود العبارة الثالثة في العنوان، الا وهي ((مقومات البقاء)) ، لان العربية في ذلك كله تمثل غاية ووسيلة في الحين ذاته للعرب جميعا، حكاما ومحكومين، بوصفها عنوان السيادة ومرآة السياسة، وصلة وصل، ووسيلة نقل للمنجزات الحضارية البشرية والقومية لأبناء الأمة الناطقة بها ، (سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين)، كما سبقت الإشارة . . . وتزيد عن ذلك كله، بل وتختص به، أنها الوسيلة المثلى والفضلى التي لا غنى عنها لنقل خطاب السماء ومنهجه الكامل والشامل، النهائي والخاتم إلى أهل الأرض، ومن ثم فلا بد لهذه العبادة من منهج تكليف، ولا بد لهذا البيان من لسان وأداة تعريف

((**الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان**)) (الرحمن/ 1، 4)، و((**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم**)) (إبراهيم / 4) . وسنعود إلى تفصيل الحديث حول هذا الموضوع في سياقه لاحقا.

وبعد هذا المدخل الضروري لوصف بعض ما هو كائن، قصد تلمس معالم الطريق، والتشخيص الدقيق، لما سيكون عليه وضع اللغة العربية في المستقبل، حسب رهانات المراهنين من كلا الطرفين..

ونبدأ بتلك الأطروحات والمراهنات، التي يرددها أعداء اللغة العربية، والتي مفادها أن اللغات كالكائنات الحية: تولد وتشب وتكتهل، وتشيخ وتموت لترثها لغات أخرى تولد بحكم الظروف المستجدة، ودوران عجلة التاريخ التي لا ترجع إلى الوراء حسب اعتقادهم الذي بنوا عليه رهانهم، والأمثلة التي ينكرونها على هذه اللغات التي عاشت وأنجبت ثم ماتت كثيرة في التاريخ القديم والحديث، ويضعون اللغة العربية في مقدمة هذه اللغات السائرة في طريق الانقراض والزوال، لتحل محلها اللهجات العامية العربية والبربرية المصطنعة في بعض المخابر الأجنبية، على غرار ما وقع للغة اللاتينية في أوروبا والعديد من اللغات السامية العروبية القديمة، التي أصبح يطلق عليها اسم ((اللغات السامية)) منذ قرنين لأسباب تدخل هي ذاتها في إطار ((مناورات الأعداء)) .

وللرد على هذه الأطروحة الرهانية ابتداء نقول: إنه كما وجدت العوامل التاريخية التي أدت في الأصل إلى تضع اللغات . . . توجد عوامل أخرى (ظهرت بشكل أقوى في عصرنا الحاضر) تساعد على التوحيد اللغوي، وتؤدي إلى ظهور اللغات العامة من جديد . . وهذه العوامل تختلف من مجتمع إلى آخر بحسب الظروف، وقد تكون سياسية أو اقتصادية أو قومية أو أدبية أو دينية، وسنحاول أن نوجز أهم هذه العوامل دون أن يعني ذلك أن جميعها يجب أن يتوفر في أية لغة كي تنتشر وتصبح عامة وبالتالي تبتلع اللغات الضعيفة التي تعترض طريقها. .

العامل الأول:

الاتصال والاختلاط بين أقوام مختلفي اللغات أو اللهجات، فيحدث تبادل تأثير بين الأطراف وتكون الغلبة للغة القوية، فتبتلع اللغة الضعيفة، أو يحدث أن تتعادل اللغتان في القوة فينتج احتكاكهما الطويل والمتواصل ظهور لغة جديدة مركبة من خليط من اللغتين... مثل اللهجة العامية لسكان المدن الساحلية الجزائرية، حيث وقع الاحتكاك الطويل بين اللغة الإسبانية والفرنسية واللغة العربية فتولدت جراء ذلك لهجة مزيجة بالألفاظ الدخيلة مزجا غريبا!!

ولو تطاوع الدولة الجزائرية في الوقت الحاضر دعاة تفصيح العامية الجزائرية لتصبح لغة كتابة وقراءة لوجد العرب أنفسهم أمام لغة أقرب إلى المالطية والإسبانية والفرنسية منها إلى اللغة العربية الفصحى !

العامل الثاني:

انتشار عقيدة دينية معينة، وما تحمله هذه العقيدة من لغة تنتشر بكيفية تلقائية في أوساط المؤمنين بتعاليم الدين الجديد ويختلف انتشارها قوة وضعفا وسرعة وبطئا، باختلاف المقاومة التي تبديها اللغة المحلية في وجه اللغة الدينية الجديدة، وأبرز مثال لهذه الحالة: انتشار اللغة العربية مع انتشار الإسلام، واحتواؤها للغات المحلية في الأقطار العربية الحالية. . . إلى أن أصبحت اللغة العربية لسان أكثر من ثلاثمئة مليون عربي في الوقت الحاضر، ضمن أكثر من مليار ونصف المليار من المسلمين الذين يتعاملون بالعربية بكيفيات متفاوتة بعد أن كانت هذه اللغة خامدة في شبه الجزيرة العربية لعدة قرون قبل ظهور الإسلام الذي نشرها وقواها وحافظ عليها، مثلما نزلت في كتابه بألفاظها وقواعدها من اللوح المحفوظ! !

العامل الثالث :

الهيمنة السياسية، وما تفرضه من لغة مشتركة بحد السيف، على كل من يقع تحت سلطانها، والأمثلة الحية في عالمنا المعاصر تتمثل في محاولة الاحتلال الفرنسي الصليبي فرنسة بعض أقطار المغرب العربي. . . وما جرى في جمهوريات الاتحاد السوفياتي سابقا من فرض للغة الروسية المشتركة على جميع الألسن . . . وما تم في الولايات المتحدة الأمريكية من نشر للغة الانجليزية في الولايات التي دخلت في الاتحاد بمقتضى الدستور الأمريكي الذي تبنى هذه اللغة بدل الألمانية نتيجة استفتاء حول هذا الموضوع (...)

العامل الرابع:

الآداب والفنون، من سينما ومسرح، ووسائل الأعلام من إذاعة وتلفزيون وصحافة مكتوبة . فكل هذه الوسائل توحد اللغة لدى أفراد المجتمع وتعمل من أجل القضاء على الفوارق الموجودة في اللهجات المحلية لتوحدها في لهجة واحدة أو لغة واحدة، ولقد ساعد على ذلك في عصرا الحاضر ظهور المدن الكبيرة التي تضم الملايين من البشر الذين تؤدي معيشتهم الجماعية إلى تكوين لغة مشتركة تؤثر عموما في لهجات النواحي الأخرى من البلاد على اعتبار أن الحواضر ظلت دائما مراكز جنب للسكان، من أقاليم متباعدة في الأرياف (كما ذهب إلى ذلك ابن خلدون) فضلا عمن يؤمها مؤقتا من سكان الضواحي لقضاء مصالحهم. . وينتج عن اختلاط هؤلاء المهاجرين بعضهم ببعض، وعن اختلاطهم بالسكان المستقرين .. أن تصقل لغة الجميع وأن ينتهي الأ مر إلى تكوين لغة عامة، كما قد تتغير اللهجات جراء التجمع السكاني الذي يجعل هذه اللهجات تنصهر لتعطي لغة عامة توافق كل السكان في المدينة الواحدة، ثم تتعدى بدورها إلى سكان البلاد كلها، وفي هذا المعنى

يقول ستيوارت ضود : ((نعرف جيدا أن الشعب الذي ينطق بلغة واحدة، إذا ما فصلته حواجز كالبحار والصحاري، وسلاسل الجبال أو غيرها، واستمر هذا الفصل قرونا تنقسم لغته إلى لهجات مختلفة، قد تكون كتابتهم

واحدة، ولكن التلفظ يكون مختلفا، بيد أن هذه اللهجات قد تمتزج، وتكون لغة واحدة مرة ثانية إذا ما تم الاتصال بين الأقطار التي تسود فيها، وبالفعل، فإننا نجد اليوم أن لهجات إنجلترا آخذة في الزوال كما أن الراديو يعد قوة جديدة وفعالة في توحيد اللهجات، والخلاصة أنه كلما ازداد الاتصال بين أجزاء العالم بواسطة وسائل المواصلات الحديثة، كالسفر والراديو والسينما والتلفزيون والأنترنت توقعنا أن تزول اللهجات، وتتوحد اللغات تدريجيا))[6] ونجد لكلام هذا العالم اللغوي عن عوامل التوحد اللغوي سندا قويا من تاريخ اللغات قديما وحديثا، ومن ذلك —— مثلا——انتشار اللهجة المصرية (نتيجة الأفلام والمسلسلات التلفزيونية) في معظم أقطار الوطن العربي في الوقت الحاضر.

فاللغة الإغريقية :

كانت في الأساس: هي اللهجة الأتيكية التي ظلت حتى القرن الخامس الميلادي لغة محلية للإقليم منعزل، ثم تطورت بعد قيام الإمبراطورية المقدونية لتطغى على باقي اللهجات المحلية، وتصبح أداة التفكير واللغة المشتركة لجميع الإغريقيين الذين كانوا قبل توحدهم يتكلمون لهجات مختلفة. . .

اللغة الفرنسية:

اللغة الحالية هي في الأصل تطوير للهجة (الأيل دي فرانس) ويعود هذا التطوير إلى أهمية العاصمة ((الباريسية)) السياسية والاقتصادية والحضارية (كما سنفصل بعد حين)

اللغة الإسبانية :

خرجت من اللهجة القشتالية التي أصبحت اللغة الأدبية في القرن الثالث عشر بفضل (الفونس العاشر) الذي كان يحتل بالنسبة الى إسبانيا مركز (دانتي) بالنسبة لإيطاليا، فضلا عن المركز السياسي والحضاري المؤثر الذي كانت تحتله قشتالة في ذلك الوقت.

اللغة الإنجليزية:

هي الأخرى ظهرت في لندن التي كانت ملتقى لمختلف اللهجات، وقد لعبت العاصمة دور الموحد لتلك اللهجات لتصبح لغة واحدة في العصر الحاضر، باستثناء منطقة ويلز التي ما تزال لغتها متداولة محليا .

اللغة الألمانية:

هي عبارة عن توحد لعدد كبير من اللهجات المحلية التي أخذت تزول شيئا فشيئا مع انتشار اللغة الألمانية المشتركة، ويعود الفضل الكبير في ذلك للمصلح (مارتن لوثر) الذي دعا الى هذا التوحيد وساعد على تحقيقه بترجمة الأناجيل الى اللغة الألمانية [7].

اللغة الروسية :

هي تطور توحيدي للهجات السلافية الجنوبية وقد تم هذا التوحد بشكله الأكمل في عهد بطرس الأكبر الذي فعل ما يشبه عمل (مارتن لوثر) بالنسبة للغة الألمانية [8].

فبهذه الأمثلة التاريخية الحية والشواهد الدقيقة يتبين لنا أن اللغات لا تسير نحو الانقسام في حتمية مطلقة، وإنما تتجه أيضا نحو التوحد إذا توفرت لها أسباب وظروف خاصة، ونعتقد أن هذه الظروف والإمكانيات المساعدة على التوحد هي في عصرنا الحاضر أوفر منه في العصور الماضية، مما يبعث على الارتياح، بأن توحد اللهجات العربية في اللغة المشتركة الواحدة هو أقرب إلى التحقق من استقلالها عن الفصحى لتصبح لغات عامة قائمة بذاتها، كما يذهب المعارضون والمخططون لهذا الهدف الاستعماري الجديد في البلاد العربية مشرقا ومغربا كما هو و اقع! !

لا شك أن القول بحتمية تفرع اللغة العربية الفصحى إلى لغات مستقلة بذاتها على غرار اللغات الأوربية المتفرعة عن اللاتينية ... هو كلام بقدر ما يستند إلى حجج تاريخية اقتنع بها بعض مرددي الصدى الغربي. . . وأصبحوا يبشرون بها كمسلمات قطعية في العالم العربي، بقدر ما هو ادعاء مغرض وتخمين باطل، ولا أدل على ارتباط هذه الدعوة بالاستعمار القديم المتجدد من أن أول من أوحى بها إلى هؤلاء المرددين و((المناولين)) العرب هم المستشرقون الإنجليز والألمان والفرنسيون الذين قسموا العربية إلى (لغة حية) و(لغة ميتة) واللغة العربية الحية ـــفي زعمهمـــ هي (اللهجة العامية) في كل بلد عربي، وأما اللغة العربية الميتة فهي (اللغة الفصحى المشتركة) وأخذوا ينشطون في القيام بالأبحاث ((العلمية!)) المختلفة في المجال اللغوي ليوهموا العرب أنهم لن يتقدموا الا إذا تبنوا تلك اللهجات كلغات للتعليم والادارة بعد تطويرها وتقعيدها (أي اصطناع قواعد لها) ومن أمثلة ذلك ما ذهب إليه الإنجليز في مصر في أواخر القرن التاسع عشر من إنشاء مجلة تسمى (الأزهر) كانت تحرر كل موضوعاتها ((العلمية)) باللهجة العامية المصرية من طرف دهاقنة المستشرقين، وقد فشلت التجربة فشلا ذريعا حيث توقفت المجلة عن الصدور بعد أن لم تجد من يقرأها، فضلا عمن يشتريها !

ونورد هنا ثلاثة ردود على هذه الأطروحة المغالطة، ونبدأ بالكاتب النصراني العربي الأصيل الأستاذ جرجي زيدان، الذي يجيب دعاة استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، واستبدال اللهجات العامية باللغة العربية العدنانية، فيكشف خفايا شيخ ((المغول)) الجدد الإنجليزي الصليبي (وليام ولكوكس) ، ويفضح نواياه بالرد عليه قائلا: ((قرأنا لجناب المستر وليم ولكوكس خطبة تلاها في نادي الأزبكية ونشرتها جريدة الأزهر الغراء في عددها الأخير الصادر في الشهر الماضي وموضوع تلك الخطبة ((لمَ لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الأن)) وقد أفاض حضرة الخطيب في ذكر الأسباب المانعة لتلك القوة ثم أتى على نكر العلاج وعدد الطرق المؤدية الى أجداها. وليس من غرضنا الخوض في شيء من تلك الخطبة الا فيما يتعلق باللغة العربية.

فقد قال حضرته أن من جملة العوامل في فقد قوة الاختراع عند المصريين استبقاءهم اللغة العربية الفصحى وأشار بإغفالها واستبدالها باللغة العامية اقتداء بالأمم الأخرى، وذكر منها بنوع خاص الأمة الإنجليزية وقال أنها استفادت إفادة كبيرة بإغفال اللغة اللاتينية التي كانت لغة الكتابة عندها واستبدالها باللغة الإنجليزية الحاضرة .

وعندنا أن المستر ولكوكس لم يصب المرمى في رأيه من هذا القبيل لأن ما صدق على اللغة الإنجليزية لا يصدق على لغتنا العربية لأسباب كثيرة نذكر منها :

أولا : إن الإنكليز باستبدالهم اللغة اللاتينية باللغة الإنكليزية قد استبدلوا لغة أجنبية بلغة وطنية وليس كذلك الحالة في اللغة العربية . فإن الفرق بين لغة الكتابة ولغة المتكلم عندنا ليس بالشيء الكبير، وقد لا يكون أكثر من الفرق بين لغة كتاب الإنكليز ولغة عامتهم الذين لا يعرفون القراءة.

ثانيا : إن استبدال اللغة العربية الفصحى باللغة العامية إذا أنقذنا من شر، فإنه يوقعنا في شر أعظم منه لأن الناطقين بالعربية تختلف لغتهم العامية باختلاف الأصقاع، والفرق بين لغة مصر والشام ليس بأقل من الفرق بين اللغة الفصحى واللغة العامية وكذلك بين لغة أحد هذين البرين ولغة المغرب والحجاز أو غيرها من البلاد العربية، ولا يخفى ما بين هذه الأقطار العربية من العلائق الأدبية والمدنية والسياسية فباستبدالنا اللغة الفصحى باللغة العامية المصرية مثلا نحرم أبناء بر الشام وبلاد المغرب من فائدة ما نكتبه في تلك اللغة وهكذا لما استبدلناه باللغة العامية الشامية أو المغربية أو الحجازية وإذا لم نخسر لذلك الا الجماعة العربية فكفى بها خسارة ! !

ثالثا : إن اللغة في كل أين وآن تتبع حالة عقول الناطقين بها ارتقاء وانحطاطا، فلغة العامة منحطة بنسبة انحطاط أفكار الناطقين بها وليس لها أن تقوم مقام اللغة الفصحى ولاسيما العربية، لأنها أرقى لغات العالم، وفيها من أساليب التعبير ما تعجز لغة العامة عن القيام بمثله. فإذا أردنا تدوين العلوم على أنواعها باللغة العامية كما أرتأى حضرة الخطيب(...) فلا أظنها تقوم بتأدية المعاني الكتابية كما يجب، ومن أين تأتي بالألفاظ التي نعبر بها عن الاصطلاحات العلمية ولا سيما الحديثة منها وقد كادت تعجز اللغة الفصحى عن القيام بها(...) فإذا قال أننا ندخل إليها تلك الاصطلاحات نقول إن الاصطلاحات المشار إليها ليست بالشيء القليل، وإنما هي قسم عظيم من اللغة الفصحى، كما هي أسهل من تعليمهم الاصطلاحات العلمية العالية المكتوبة بالإنكليزية الأن، لا يستطيع عامة الإنكليز فهمها ولو مهما بولغ في إيضاحها وبسطها، وذلك دليل على أن بين العامة والخاصة حجابا لو حاولنا حسره عادت الطبيعة فأسدلته!!

رابعا : إن الجامعة العربية قائمة بالمحافظة على اللغة الفصحى، إذ لولا القرن الشريف والمحافظة عليه منذ صدر الإسلام وعودنا إليه في إصلاح ما تفسده الطبيعة من لغتنا، لتشتت شمل الشعب العربي وأصبح كل قطر من الأقطار العربية مستقلا عن الأخر لا يفهم لغته كتابة ولا تكلما، كما حصل بالأمم التي كانت تتكلم اللغة اللاتينية فقد

أصبح لكل منها لغة مستقلة لا تفهمها الأمة الأخرى مثال ذلك فرنسا وإيطاليا وإسبانيا وغيرها والفضل الأكبر في حفظ الجامعة العربية الى الأن هو القرن الشريف، والمحافظة عليها من أهلها .

خامسا : إن إغفال اللغة الفصحى استوجب إغفال كل ما كتب فيها من العلوم على أنواعها منذ ألف وثلاثمئة سنة وهي خسارة لا تعوض)) [9] . .

ويضيف الكاتب قوله: ((يتضح مما تقدم أن استبدال اللغة العربية الفصحى باللغة العامية رأي إغفاله أولى بنا ليس فقط لكونه عقيما، بل لا نه مضر باللغة والناطقين بها علميا ودينيا، وأدبيا[10]

وفي السياق ذاته من كشف لأعداء ونوايا الخصوم الحضاريين المراهنين على زوال جوهر هوية الأمة ولسان دينها المبين وإحباط كيد الرهان على زوالها بالحجة والبرهان، يقول إبراهيم اليازجي ردا على ((مراهن)) آخر هو المستر ولمور المخطط الإنكليزي الكبير، قبل مؤامرة ((سايكس بيكو)) ووعد بلفور الشهير والخطير حيث يقول :

((نشر بعضهم من سنوات رسائل متتابعة يدعو فيها علماء العربية وكتابها إلى استبدال اللغة العامية من الفصحى واعتمادها في الكتب والجرائد وغيرها، ورسم لها حروفا جديدة تكتب بها هي الحروف اللاتينية ،وقد وضع لبعضها علامات خاصة للدلالة على المقاطع التي لا صور لها في اللغات الأنفرنجية . وقد انتهى إلينا بعض ما نشره من تلك الرسائل، وفيه أمثلة من حكايات وغيرها باللغة العامية المصرية كتبها بالحروف المذكورة فكانت نوعا من الكرشوني * . الا أنه متفرنج كأكثر أهل الشرق في هذه الأيام، وإذا قرئت جاء لفظها أشبه بلفظ رجل إفرنجي يتعلم العربية، ولاسيما في أمر الحركات التي عبر عنها بأحرف المد، فإذا نطق بها العربي توهم سامعه أنه يقلد كلام أحد الأفرنج المقيمين في هذه الديار))[11] .

ويضيف قوله: ((ولا يخفى أن الحجة الكبرى في ذلك كله هو الفرق الذي حدث بين اللغة العامية واللغة الفصحى حتى صارتا في نظر الأجنبي كأنهما لغتان متباينتان، بحيث يتعذر على العامي فهم اللغة المكتوبة. ولكن ذلك وهم دسه على أولئك القوم الجهل بلغة البلاد، لا نهم لو كانوا يعرفون العربية كما يعرفها أهلها لعلموا أن معظم الفرق بين اللغتين مقصور في الغالب على إهمال علامات الأعراب من لسان العامي بحيث أصبح مسموع اللفظين متباينا على الجملة . إلا أن هذا إنما تتنكر به اللغة في سماع الأجنبي لا في سماع أهلها، ألا ترى أن العامي منا لو سمع قائلا يقول رأيت زيدا، وجاء الرجلان، والمؤمنون يذهبون، لم يلتبس عليه لفظ زيد بسبب ما اتصل به من التنوين ولم يجد فرقا بين الرجلان والرجلين ولا بين المؤمنون والمؤمنين وينهبون وينهبوا، وإنما هذا كله مما يشكل على الأجنبي الذي لم يتعلم الا اللغة العامية . ومن أعظم الشواهد على ذلك أن العامة منا يقرأون ويسمعون الجرائد وكتب الروايات والأقاصيص الحديثة والقديمة من مثل سيرة بنى هلال وعنترة وأحاديث ألف ليلة وليلة، وغيرها ويفهمونها ويروونها مع أن جميعها مكتوبة باللغة الفصيحة))[12] .

ونختم هذا الموضوع برد قاطع للدكتور طه حسين (وهو عميد الأدب العربي المتقن لعدة لغات أجنبية غربية، ورئيس مجمع اللغة العربية) ، يقول فيه: ((أحب أن ألفت نطر أدباءنا الذين يطالبون بالالتجاء إلى اللهجات العامية، إلى شيء خطر ما أرى أنهم قد فكروا فأحسنوا التفكير فيه، وهو أن العالم العربي الأن وكثير من أهل العالم الشرقي كله يفهم العربية الفصحى، ويتخذها وسيلة للتعبير عن ذات نفسه، والتواصل الصحيح، فيمعن كل قطر في لهجته، وتمعن هذه اللهجات في التباعد والتدابر، ويأتي يوم يحتاج فيه المصري إلى أن يترجم إلى لهجته كتب السوريين واللبنانيين والعراقيين، ويحتاج أهل سوريا ولبنان والعراق إلى مثل ما يحتاج إليه المصريون من ترجمة للكتب المصرية إلى لهجاتهم كما يترجم هؤلاء عن الفرنسيين، ونسأل أنفسنا آخر الأمر أيهما خيرا أن تكون للعالم العربي كله لغة واحدة هي اللغة الفصحى، يفهمها أهل مراكش كما يفهمها أهل العراق، أم أن تكون لهذا العالم لغات بعدد الأقطار التي تتألف منها وأن يترجم بعض العرب لبعضهم كما يترجم بعض الأوربيين عن بعضهم .. . أما أنا فأوثر وحدة اللغة، وأثق الثقة كلها بأن لها النصر آخر الأمر، ورأيي غير متردد، أن وحدة اللغة هذه خليقة بأن يجاهد في سبيلها المؤمنون، وبأن يضحوا في سبيلها بكل ما يملكون))[13].

وكمثال على توحد اللهجات العامية المختلفة في لغة فصحى واحدة نأخذ تاريخ اللغة الفرنسية ذاتها، حيث تقسم اللهجات الرومانية التي كانت متداولة شعبيا في المجتمع الفرنسي في عهد السيادة الرسمية للغة اللاتينية في فرنسا (قبل أن تصبح لفرنسا الحالية لغة قومية مشتركة) تقسم هذه اللهجات إلى قسمين رئيسيين هما :

اللهجات الشمالية، واللهجات الجنوبية، ويطلق على المجموعة الأولى اسم (لهجات الأويل) ويطلق على المجموعة الثانية اسم (لهجات الأوك) واللغة الفرنسية الحالية تمثل أرقى الدرجات التي وصلت إليها لهجات (الأويل) الشمالية، والبروفانسية الجنوبية، تمثل أرقى الدرجات التي وصلت إليها لهجات (الأوك) الجنوبية .

فاللهجة العامية التي انحدرت منها اللغة الفرنسية الحالية كانت بادئ الأمر لهجة خاصة بالمنطقة التي تمثل ضواحي العاصمة الفرنسية في الوقت الحاضر، (والتي تعرف باسم جزيرة فرنسا) (Ile de france) وقد تطورت وانتشرت فيما بعد نتيجة عوامل عديدة (تدخل في إطار ما ذكرناه قبل حين من عوامل التوحد) . ومن جملة هذه الأسباب والعوامل أن المنطقة المذكورة كانت مهدا للأسرة التي أسست المملكة الفرنسية، ولذلك اكتسبت لهجاتها مكانة سياسية خاصة مكنتها من التغلب شيئا فشيئا على اللهجات الأخرى تبعا لتوسع نطاق حكم الأسرة المذكورة.

فكلما دخلت مقاطعة من المقاطعات تحت حكم المملكة الفرنسية كانت تدخل في الوقت ذاته تحت تأثير اللغة الفرنسية، وكانت بهذه الكيفية تتغلب على اللهجات المحلية أولا في المدن ثم باقي المناطق الريفية تدريجيا . .

إلا أن ما يجدر ذكره هنا على الخصوص هو أن تلك اللهجات الفرنسية المختلفة لم تنقرض نهائيا من الواقع الفرنسي نتيجة الحركة الفكرية والأدبية المذكورة .. . بل ظلت مخلفاتها محصورة في بعض المناطق الريفية إلى اليوم،

وذلك ما استدعى اهتمام رجال الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر لإيجاد الحلول الجذرية لها، صيانة لوحدة الأمة الفرنسية السياسية والثقافية، والاجتماعية(...)

غير أن اللهجات لا يمكن أن تزال بين عشية وضحاها بقرارات تتخذها الحكومة، أو بيانات تصدرها المجالس التمثيلية، بل أن زوال اللهجات يتطلب عملا متواصلا وتخطيطا دقيقا محكما ينفذ بصرامة وقد يستمر عدة أجيال بحسب الظروف والإمكانات، ولذلك دعا مجلس الثورة الفرنسية جميع المواطنين الى الاهتمام بهذا الأمر، أي الاعتناء باللغة القومية المشتركة والتخلي عن اللهجات المحلية الضيقة . .))[14] .

وهكذا أخذت الثورة تستحث الشعب، ومختلف الدوائر الحكومية والتعليمية، والهيئات العلمية على بذل الجهود المكثفة والجادة، لنشر اللغة الفرنسية الفصيحة وتحقيق الفرنسة الكاملة لأبناء الأمة الفرنسية، وفي هذا المعنى يقول الباحث العربي الأستاذ ساطع الحصري : ((عندما أقرت الثورة الفرنسية (مبدأ التعليم الإلزامي العام) رأى رجال الفكر أن تكون مكافحة اللهجات المحلية والعامية من جملة الأهداف التي يرمي اليها التعليم بوجه عام))[15].

والآن فكيف يراهن هؤلاء المخططون المعاصرون على أن تاريخ انقسام اللغة اللاتينية واندثارها سيعيد نفسه مع اللغة العربية على الرغم من اختلاف المكان والزمان، والأهم من ذلك كله هو اختلاف اللغتين في مقوماتهما الجوهرية . . فما هي هذه الاختلافات الجوهرية التي تميز اللغة العربية عن اللغة اللاتينية المشبهة بها والمقارنة معها من طرف بعض من ذكرنا، ومن لم نذكر من الأعداء العارفين والجاهلين والواهمين ...؟

الاختلاف الأول:

من المؤكد تاريخيا أن اللغة العربية لم تتعرض ـــبعد استقرارها في الوطن العربي الحاليـــ إلى غزوات أقوام غير عرب، فالغزوات التي تعرضت لها فرنسا ـــمثلاـــ جراء انسياح القبائل الجرمانية عليها، فاستيطانها استيطانا كاملا، حمل معه كل تناقضاته اللغوية ليؤثر في اللهجات المحلية المتفرعة عن اللاتينية، والتي أدت بها إلى تعميق هوة الاختلاف بينها وبين اللغة الفصحى الأم.

ولئن تعرضت البلاد العربية في بعض الفترات إلى الوقوع تحت حكم بعض الأسر الإسلامية غير الناطقة بالعربية، فإن هذه الأسر كانت تتعرب وتذوب في المجتمع المحلي، باستثناء الأتراك الذين قاوموا في أواخر عهدهم عملية التمثل داخل المجتمع المحلي، ولكن لم يتمكنوا من القضاء على اللغة العربية لأنها كانت لغة العقيدة التي كانوا يحكمون باسمها، كما أن بني عثمان على الرغم من عدم تعريبهم لبقاء عاصمة حكمهم خارج الوطن العربي، فقد تأثرت لغتهم باللغة الفصحى، أكثر مما أثرت لغتهم في لهجاتها المحلية[16] .

ولعل فشل الأتراك في احتواء اللغة العربية هو الذي جعل أمير الشعراء أحمد شوقي ينصحهم مثل جمال الدين الأفغاني قبل ذلك، بتعلم اللغة العربية واتخاذها لغة قومية لهم لتتم اللحمة بينهم وبيننا كأمة واحدة، ويكتمل انسجام الوضع القائم الذي ظل مختلا بسبب الاختلاف اللغوي[17] ، فقال شوقي سنة 1901 ذلك في بيتين معبرين:

شمل اللغات في الأقوام ملتئم والضاد فيها بشمل غير ملتئم

فقربوا بيننا فيها وبينكم فإنها أوثق الأسباب والذمم

والحقيقة أن شوقي لم يكن خياليا في دعوته الأتراك إلى أن يتعلموا اللغة العربية.. فقد كانوا في عهدهم الأول يتعلمونها ويتكلمون بها، ويضعون مؤلغات فيها مثل الفيروزابادي، وأبي السعود، وملاخسرو، والجامي، وحجي خليفة، وابن كمال باشا، فضلا عن التأثر الكبير للغة التركية باللغة العربية في الحروف ذاتها وفي العديد من المجالات العلمية والدينية والحضارية لعدة قرون، حتى إلغاء الخلافة في العشرينيات من القرن الماضي، لأسباب لا تخرج في حقيقتها عن مخططات الأعداء للقضاء على وجود الأمة في ذاتها، فضلا عن وحدة خلافتها ولغتها!!.

الاختلاف الثاني:

إن الإسلام ظل متلازما مع العربية تلازما كليا طوال تاريخه المديد في الوطن العربي ولم يتخل عنها كما لم تتخل هي عنه إلى اللهجات العامية، مثلما فعلت المسيحية (بمختلف كنائسها) مع اللاتينية في البلاد الأوربية، كما أشرنا آنفا .

فالإسلام لم يعهد بمهمة تلاوة القران الكريم إلى أئمة المساجد وخطباء الجوامع وحدهم (كما فعلت المسيحية في العالم الروماني) بل فرض حفظ القرآن وسماعه وتلاوته بلغته المنزلة على كل مسلم ومسلمة، (كما سنفصل ذلك بعد حين) .

وحتى في الصلوات الجماعية —كما هو معلوم— يتعين على المسلمين أن ينصتوا إلى ما يتلوه الأمام جهرا، ثم يقرأون في سرهم في الركعات التي لا تتطلب الجهر. . ولقد أدت هذه الواجبات التعبدية الجوهرية في الإسلام إلى إنشاء مدارس وكتاتيب كثيرة لتعليم اللغة العربية وتحفيظ القرآن، وقد ظلت هذه المدارس والكتاتيب قائمة ولم تزده حتى في أحلك فترات السيطرة الاستعمارية الصليبية على أقطار الوطن العربي وخاصة الجزائر[18]. وكان من نتيجة ذلك كله أن أدى بكيفية مباشرة إلى عدم انقطاع المسلمين عامة والعرب منهم على وجه الخصوص عن اللغة العربية،

بل ظل ينفرهم بها ويشدهم إليها شدا مقدسا . . وذلك مالا نجده أبدا في اللغة اللاتينية بالنسبة للمجتمع المسيحي. ولا أدل على ذلك من أن الكنائس المسيحية في البلاد العربية قد تخلت عن اللاتينية إلى اللغة العربية الفصحى، حيث أصبحت الكنائس الشرقية منذ قرون عديدة تعتمد اللغة العربية في الصلوات والمواعظ، كما اعتمدت ترجمة الأناجيل إلى اللغة العربية الفصحى بعد تخلصها من ربقة اليونانية، ولهذه الأسباب كلها ظل اتصال العرب بلغتهم الفصحى اتصالا قويا لم يترك مجالا لتباعد لغة الكلام عن لغة الكتابة تباعدا شبيها بذلك الذي حصل للغة اللاتينية مع ربيباتها الأوروبيات . . وظلت الفروق بين الفصحى واللهجات العامية ضعيفة، لا تتعدى الفروق القائمة بين اللهجات بعضها عن بعض لدى العرب المتعلمين، وحتى العرب غير المتعلمين الذين لا يتكلمون الفصحى،

يجدون سهولة في فهم الفصحى أكثر مما يجدونها في فهم اللهجات العامية الأخرى(! ؟) وإذا علمنا أن اللغة العربية الفصحى في الوقت الحاضر في طور النهوض والانتشار والازدهار

وهي تغزو اللهجات العامية أكثر مما تتأثر بها، (رغم ما قد يبدو للبعض من واقع بعض ما تبثه الفضائيات العربية المقاولة لحساب رهان الأعداء) نتأكد أن اللغة العربية تسير في طريق التوحد وليس في طريق الإندثار كما حصل للاتينية، بدليل أن اللهجات العامية العربية إن انتشرت، فلا تخرج عن نطاق بعض دول الجامعة العربية!

وهذا ما نلاحظه لدى كل المسلمين الذين يتحدثون اللغة العربية في العالم (من غير العرب)، فهم لا يعرفون إلا الفصحى، ونحن العرب نضطر أن نتحدث معهم بالفصحى وحدها، وهم الأكثرية بالنسبة لأقطار الجامعة العربية الذين لا يزيد عددهم في الوقت الحاضر عن خمس المسلمين في العالم!! خاصة وأن ذلك يتم بدون تخطيط ينكر من الدول العربية لمكافحة العامية ونشر الفصحى بصورة فعالة (على غرار ما فعل قادة فرنسا بعد الثورة كما أسلفنا).

فاللغة الفصحى الأن هي لغة القراءة والكتابة والتعليم في المدارس والمعاهد العربية التي تعد بالألاف، يؤمها طلبة عرب ومسلمون يعدون بالملايين، فضلا عن المدارس والمعاهد التي تؤسس كل يوم في البلدان الإسلامية شرقا وغربا . . إلى جانب الصحافة المنطوقة والمكتوبة التي توزع الملايين من النسخ يوميا باللغة الفصحى في كل الأقطار العربية، يقرأها ملايين العرب، وغير العرب في عصر الأقمار الاصطناعية المتطورة ٠ك (عربسات والنيل وغيرهما..) وحوالى 450 قناة فضائية عربية أخرى (حتى الأن) وصوت العرب، وصوت الوطن العربي، وأجهزة الحاسوب العجيبة بحروفها العربية البديعة، التي حلت مشكل صعوبة الكتابة العربية، وكذلك الشبكة العنكبوتية، وغيرها مما سيبعث على التوحيد الحتمي للغة العربية في الألسن الناطقة بها، عبر كل قارات العالم على امتداد سماع الأنان، ولسان القران(...)

كما نجد أيضا في معظم الدول العربية (المستقلة) وزارات خاصة بالثقافة والأعلام والتعليم والتربية.. تعمل في مجموعها من أجل تحقيق نهضة اللغة العربية الفصحى.. وإرجاعها إلى سابق عهدها قوة وانتشارا، وخاصة بعد

انتشار هذه الفضائيات العجيبة التي قربت الشعوب العربية (أميين ومثقفين) بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ، وهي لصالح اللغة العربية بكل المقاييس، وليست لصالح العاميات بأي حال من الأحوال، بدليل أن كل الفضائيات التي أسستها الدول الاستعمارية الكبرى المناوئة للإسلام والعربية، كأمريكا (قناة الحرة)، إنكلترا (قناة بي بي سي)، فرنا (قناة 24)، ألمانيا (قناة أوتشيفيلي)، إيطاليا (قناة الحياة)، فضلا عن قناة (أحبار أروبا) و(روسيا اليوم) وحتى شبكة بهند أصبحت عندها ترجمة عربية لبرامجها؟!.

وأخيرا يمكن القول، وبدون أية مبالغة إن اللغة العربية في طور النهوض التلقائي، وهي إذا لم تفقد نفسها في أحلك ظروف الاستعمار والانحطاط التي مرت بها خلال القرون المتتالية الماضية، فلا يمكن أن تزول بعد أن أصبحت هي اللغة الرسمية في أكثر من ثلاث وعشرين دولة عربية، ولغة معتبرة لدى العشرات من الدول الإسلامية.. وعلى رأسها باكستان وإيران اللتان جعلتاها اللغة الثانية، وأخينا انضمت إليهما تشاد، والبقية في الطريق حتما، كالسنغال ومعظم الدول الأفريقية الإسلامية (الأنجلوونية والفرنكفونية الحالية) .

ولقد شاهدت ذلك بنفسي هذه السنة (2008) في مكة المكرمة أثناء انعقاد المؤتمر العالمي الأول للحوار الإسلامي، حيث كان يتفاهم كل مسلمي العالم (الممثلين لمليار ونصف مليار من المؤمنين) باللغة العربية الفصحى وحدها، لأنها هي اللغة الوحيدة التي تجمع هؤلاء المسلمين، (كما تجمعهم القبلة الواحدة) على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم المحلية أو الرسمية والوطنية في كل القارات.

ونؤكد هنا أن اللغة العربية هي التي ستسود في كل الدول الإسلامية الأفريقية في المستقبل بشرقها وغربها وشمالها وجنوبها بعد استقلالها الحقيقي عن السيطرة الأجنبية بالحرية والديمقراطية الحقيقية الغائبة والمغيبة عن إرادة الشعوب في الوقت الحاضر.

وهو ما يمثل أفضل رد على هؤلاء المراهنين من ((المقاولين)) العرب، وأسيادهم المستشرقين أن يراهنوا على زوال اللغة العربية لتدول دولة العاميات العربيات كلغات رسمية وتتقوقع الفصحى في المصاحف والمساجد، ثم المتاحف بعدها، مثلما وقع للاتينية قبلها؟؟

إن أية لغة مشتركة (والعربية هي كذلك بامتياز) ترجع في وجودها إلى انتشار قوة سياسية منظمة، أو إلى تأثر طبقة اجتماعية غالبة، أو إلى تفوق أحد الأداب . وهي مدينة في بقائها كلغة مشتركة أيضا إلى أسباب سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو دينية أو ثقافية . وهذه العوامل كلها متوفرة في اللغة العربية منذ ظهور الإسلام، مما جعلها ويبقيها اللغة المشتركة التي لا تتفكك ولا تتفتت الا إذا زالت العوامل التي أوجدتها أو تراخت العرى التي

كانت تمسكها، وهذا لم يحصل ولن يحصل للغة العربية الفصحى أبدا لارتباطها بأرواح الناس ما داموا أحياء متعلقين بالسماء! !

وفي ذلك يقول الباحث العربي الدكتور علي الغزيوي : ((حين نتحدث عن العربية الفصحى لا نقصد تبني الاتجاه القومي، ولا التركيز على الجنس العربي، بقدر ما نريد عربية اللسان، وهي اللغة التي سادت بين أبناء الأمة الإسلامية، أتقنها العرب الذين عرفوا بفصاحتهم، كما أتقنها الأعاجم الذين تعلموها وألفوا بها وخدموها، ولذلك فلا مجال هنا لأي عصبية عرقية أو جنسية أو قومية أو إقليمية، ولا ميزة للجنس العربي على غيره أبدا في هذا المقام، لأن الأمر ينصرف إلى اللسان العربي الذي اختاره الله عز وجل لقرآنه الكريم .

والواقع أنه يصعب حصر فضائل لغة القرآن الكريم أو تحديد مزاياها، لأنها كثيرة ومتنوعة، ولذلك سنقف عند مجموعة من النماذج التي تبرز فضائلها الكبرى،

ومنها أنها:

1— **لغة تعبد** : إن العربية الفصحى لغة تعبد، لا تجوز الصلاة بدونها، إذ لا تقبل صلاة بغير العربية، وهذا يجعل العبادة في حد ذاتها وثيقة الصلة بحياة الإنسان وواقعه اليومي المعيش، وليست طقوسا تؤدى في يوم معلوم، بطريقة محددة، في مكان خاص، بأي لغة ولو كانت لا علاقة لها بقضايا الناس وهمومهم وثقافتهم، كما هو الشأن بالنسبة للمسيحيين الذين يتعبدون باللاتينية التي تغلل معرفتها محصورة في فئات محدودة من الناس، ويضل النص المتعبد به بواسطة تلك اللغة جامدا لا علاقة تربطه بالمتعبد، لا من الناحية الروحية ولا من الناحية المادية أو الفكرية.

ودعاة التغريب يدركون هذه الحقيقة، ويعرفون مكانة العربية الفصحى من الإسلام، ويفهمون أبعاد هذا الارتباط العضوي، ولكنهم يستكثرون انعكاساته الإيجابية الكثيرة على نفوس المسلمين وهم يستعملون هذه الفصحى ويتعبدون بها في الوقت ذاته، ولذلك يسعون إلى إبعاد العربية الفصحى من صدارة اهتمامات أبناء الأمة .

2 — وسيلة لربط حاضر الأمة بماضيها:

إن العربية الفصحى وسيلة رئيسية لربط ماضي الأمة بحاضرها، عن طريقها تتمكن الأجيال المتعاقبة من فهم تراث أسلافها، وبها تستطيع أن تتواصل مع إنتاجهم وإنجازاتهم الحضارية، ماديا وفكريا، وبواسطتها تستوعب نظرياتهم، وتغوص في أسرار تاريخهم، وتصل إلى خلاصات مصنفاتهم، وتستوحي القيم الفكرية الإنسانية النبيلة التي بنوا عليها صرح الحضارة الإسلامية الشامخة المتميزة...))

ثم عن سيادة اللغة العربية وصمودها لعدة قرون بما تتميز به من مقومات ذاتية حباها بها خالقها تحضيرا لاستيعاب كلامه والوفاء بمعانيه السامية، بما يثبت أن العجز في الناطقين بها وليس فيها، يقول الدكتور لغزيوي: ((لقد سادت العربية الفصحى خلال عصور متوالية في مختلف البيئات الإسلامية سيادة مطلقة دون أن يرميها أحد بأي تهمة تقلل من شأنها بين اللغات، ولم يثبت أن اشتكى أحد من عيب أو قصور أو عجز فيها، بل كان التنويه كبيرا بإمكاناتها المتعددة، وخصائصها المميزة لها عن غيرها من اللغات بالنظر إلى مكوناتها وقابليتها للاشتقاق، وتعدد مجالات إغنائها، وقدرتها على استيعاب مختلف الحمولات والمعارف، فضلا عن جمالية إيقاعها وموسيقيتها المتميزة...

... والمثير للغرابة والعجب أن الحملات توجه إلى اللغة في ذاتها لا إلى أهلها، مع أن القصور الذي ترمى به ليس راجعا إليها، بقدر ما هو كامن في أبنائها، ولا سيما والأجماع حاصل عند علماء الغرب أنفسهم على أن العربية من أكمل اللغات، ويكفي الاطلاع على مجموعة من معاجمهم كمعجم لاروس، أو معجم لالاند للوقوف على هذه الشهادات.))[19].

وما قيل في اللغة يقال في الخط العربي أيضا، حيث أنه من الغبن والعبث أن يحاول أحد أن يقنع الأقوام الناطقة بالضاد بأن تستعيض عن خطها العربي بالخط اللاتيني الأوروبي. فإن حرفا تكتب به العربية والفارسية والتركية والأردية وغيرها لحقيق أن تستعمله الحروف الناطقة بالضاد، ولا يستطع الأنسان اختراع حرف قادر على مجاراة التغيرات اللفظية الناتجة عن تفير الزمان والمحيط، وقد أثبتنا استحالة هذا التعيير في مكان آخر، لعدم قدرة الحروف اللاتينية وغيرها، على التعبير عن مخارج الحروف القرنية الحالية والأبدية، ما بقي مؤمن واحد يدين بالدين الخاتم والظاهر على الدين كله فوق الكرة الأرضية!!

وهذا ما يخلد هذه اللغة، كما قال المستشرق الأمريكي رتشارد كوتهيل: ((كان للعربية ماض مجيد، وفي مذهبي أنها سيكون لها مستقبل باهر، ولأرباب العلم في مصر وسوريا فضل في إبقاء نورها ساطعا، أما الأن وقد خولوا حرية لم تكن لهم من قبل وأزيح النير التركي الظالم عن رقابهم، ففي استطاعتهم اتباع الخطة التي رسموها لأنفسهم والطريقة

الوحيدة التي يجب استعمالها هي طريقة التهذيب، وليس من وسيلة لإشعال النور الذي سطع في الأيام الغابرة وجعل الشعوب الناطقة بالضاد خلقا صالحا لأسلافهم العظام أفضل من درس تاريخ الآباء وآداب الأجداد))[20] .

وقال المستشرق اليسوعى الأب لامنس : ((إني أثق بمستقبل حسن للغة العربية على شرط أن يتولى الحكم في البلاد العربية رجال ذوو نظر بعيد وأفكار واسعة ووطنية رحبة))[21] .

وهو ما يؤكده أيضا المستشرق الأمريكي وليم وارلي في جواب عن سؤال وجه له حول هذا الموضوع، فقال: ((أما سؤالكم عن مستقبل اللغة العربية، فالجواب عليه أن هذه اللغة لم تتقهقر قط فيما مضى أمام أي لغة أخرى من اللغات التي احتكت بها، وينتظر أن تحافظ على كيانها في المستقبل كما حافظت عليه في الماضي . ولا ريب أن الأحتكاك بالمدنية الغربية سيكون له شأن متزايد في تطور اللغة العربية.

أما عن سؤالكم حول بقاء اللغة العربية واحدة أو تحولها إلى عدة لغات، فالجواب عليه أن اللغة العربية الفصحى ليست حية في أفواه الشعوب العربية . ومع ذلك لو استطاع أحد أن يجعلها جميعا تتكلم بها، فإنه يأتي بذلك أمرا ليس له مثيل في تاريخ العالم))[22] .

ويعضد ذلك الأستاذ محمد كرد علي (رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق)

بقوله: ((فإن التركية في الماضي القريب كادت تقضي عليها (يقصد اللغة العربية)، في دمشق وبغداد، بل في مكة والمدينة، وها هي الأن تنشط من عقالها والنفوس ترغب في تحصيلها والمتعلمون يفاخرون بإتقانها، وستدرس بها جميع العلوم العالية، فتحسن دراستها وتزيد مرونة لقبول الأوضاع الجديدة لأنها لم تتعاص على ذلك، وهي في إبان بعثتها فكيف بها تتعاصى في هذا القرن وهي ترى العلوم تزيد والألفاظ والمسميات تكثر، ولعله لا يمضي قرن أو قران حتى تتوحد اللهجات العامية لأن الفصحى آخذة بالتغلب عليها))[23] .

وعن مستقبل اللغة العربية، على ضوء ماضيها الذي مرت فيه على مراحل كبرى، لم تزدها الأيام والمحن فيها الا قوة وصلابة، كما قال الأستاذ محمد كرد علي، يقول رتشارد كوتهيل أيضا : ((ومما لا ريب فيه أن الانقلابات الناجمة عن الحرب الكبرى سيكون لها شأن في تقريب البلاد العربية وأبنائها على اختلاف مللهم ونحلهم وتكوين ما نسميه نحن الأوروبيين (مدنية) ، وسوف يتيسر للمدنية الأوروبية إحداث تغيير شديد في اللسان العربي

على أن اللسان العربي والآداب العربية ستحتفظ بكيانها في المستقبل كما احتفظت به في الماضي. فهذه هي المرة الثالثة التي احتكت فيها بمدنية أخرى وعادت سالمة. ففي صدر الإسلام احتك الدين الجديد والنهضة الجديدة ودابها بحفارة العصر اليوناني اللاتيني الذابلة، واستفادت فائدة جليلة، الا أنها لم تغلب على أمرها، ولما اجتاز العرب بوغاز جبل طارق وحلوا بإسبانيا وجنوب فرنسا تم التلامس للمرة الثانية وذلك مع المدنية الغوتية، ولكن العرب لم

يقهروا بل تقهقروا إلى إفريقيا تاركين في إسبانيا أكثر مما أخذوا منها، فمن الواضح أن الينابيع التي استمدت الآداب العربية وحيها وإلهامها منها لم تكن ناضبة .

وفي مذهبي أن نتيجة الاحتكاك الثالث الذي نحن بصدده الأن ستكون مثل نتيجته في المرتين الأخريين مهما تكن التغييرات السياسية . فربما بسطت فرنسا حمايتها على سوريا وبريطانيا العظمى تولت المحافظة على مستقبل جنوبي ما بين النهرين، غير أنه لا يعقل أن تحل اللغة الفرنسية أو الإنجليزية محل اللغة العربية !

وإن شعبا له آداب غنية متنوعة كالآداب العربية، ولغة مرنة لثنة ذات مادة تكاد لا تفنى، لا يخون ماضيه، ولا ينبن إرثا اتصل إليه بعد قرون طويلة عن آبائه وأجداده .)) [24] .

وعن قدرة اللغة العربية على التكيف مع مستجدات المستقبل، يقول مصطفى صادق الرافعي : ((إن تأثير التمدين الأوروبي والروح الغربية في هذه اللغة، لن يكون الأعلى السابقة التي سلفت من تأثير علوم الفرس واليونان وغيرهم، ولا ضرر منه على اللغة العربية، فهي قوية متينة تحمل ذلك، وتستلحقه وتأتينا به مستعرا، وإن نبت في لندن وباريس وبرلين وغيرها كما جاءت بمثله من قبل . وما دام فينا حفاظ ونزعة صحيحة فلا نخشى على لغتنا ضرورة من الضرورات، لان في كل تاريخ حي ممرا لمثل هذه الضرورة تبدأ فيه من جهة وتنتهي منه في جهة[25]

ولكون اللغة العربية لغة مشتركة ولغة أمة، لتب لعلة وجودها وحافظ لسانها الخلود في الوجود[26]، فإنها تحافظ على بنور بقائها في ذاتها بما يضمن مستقبلها، كما يقول الدكتور بشير فارس: ((. . .غير أن أحوال الجماعة وذهنيتهم وأساليب نطقهم ما تنفك تتحول عن مواضعها على مر القرون، فتتحول اللغة معها جميعا، والسبب في ذلك التحول يرجع إلى عوامل كثيرة، منها لغوية فيدخل تحتها القياس، ومنها تاريخية فيندرج فيها علاقات الجماعات بعضهم ببعض بين فتح وجلاء ومتاجره، ومنها سياسية بين تقدم لهجة على اخواتها واتحاد الأمة أو تفرقها، ومنها حضرية بين انبساط مناهب العمران واتساع ألوان الترف وانتشار العلوم والصناعات ونشوء المدارس والصحف، فضلا عن الأسباب المقصورة على النطق وأجلها شأنا ميلنا إلى إرسال الكلام في أقل جهد باجتناب ما يثقل على اللسان)) [27] .

ومهما يكن من أمر فإن إيماننا لا يتزعزع بأن اللغة العربية ستبقى شامخة وعزيزة في قلوب أبناء هذه الأمة ما داموا وطنيين مسلمين، وستزداد انتشارا ورسوخا مع كتابها المقدس حتى ولو زالت بلادهم من الخريطة الجغرافية على غرار ما يفعل الروس في الشيشان اليوم، أو ما تفعله جورجيا بأبخازيا وأوسيتيا الجنوبية، وعادت بلاد المغرب والمشرق بمخططات الأعداء (وتواطؤ الوكلاء والعملاء) مرة أخرى إلى الخريطة الفرنسية والإنجليزية والإسبانية، فإن لغة السماء ستظل باقية وخالدة بفضل مقومات النقاء والبقاء رغم كل مراهنات الأعداء!

ولا سيطرة للفرنسية والإنجليزية على اللغة العربية عالميا، لا ن رقعة انتشارها في العالم ليست محصورة — فقط— في هذه البلاد العربية المذكورة في عداد البلاد الفرنكفونية المقهورة (إداريا وسياسيا كما هو واح!)، وذلك لكون هذه اللغة موجودة قبل وجود هذه الدول وباقية بالتالي بها وبدونها، لارتباطها بكلام الله الخالد وبإرادته الحافظة وليست مرتبطة (لحسن تدبير الخالق القدير) بإرادة أي مخلوق على وجه الأرض، كما أنها لغة 350 مليون ناطق بها رسميا على الأ قل في العالم العربي وما ينيف عن المليار ونصف المليار من المسلمين عبر كافة قارات المعمورة، يتعبدون بها روحيا، ويقدسونها دينيا، ويحبونها كالصلاة ويتنوقونها كالشعر والحياة، من تومبكتو وكانوا ونجامينا ونواقشط وداكار... إلى طهران وإسطنبول وكابول وإسلام أباد وجاكرتا ولاهور وكوالألمبور... (كما ذكرنا في مثال مؤتمر مكة الأخير حول الحوار الإسلامي) .

وإذا نحن عرفنا الله وعبدناه بالإسلام((**إن الدين عند الله الإسلام**)) (آل عمران / 19) ((**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**)) (آل عمران – 85) فمن البديهي القول أن لا إسلام بدون قران ولا قران بدون اللغة العربية التي تمثل الوسيلة الأولى لفهمه وغاية لعبادته في الوقت ذاته. . . فلا فهم للإسلام بدون معرفة اللغة العربية و لا حتى الدخول فيه إلا باللغة العربية كما هو محدد شرعا بالنسبة للنطق بالشهادتين، وما لا يتم الواجب إلا به يعتبر واجبا (كما تقول القاعدة الأصولية) ويمكن أن نقيس على ذلك فنقول بأن ما لا يتم إرضاء المحبوب إلا به يصبح حبه أكثر من ضرورة، وإذا كان من الممكن أن نعرف شيئا دون أن نحبه، فإنه بإمكاننا أن نحب شيئا ونؤمن بوجوده دون أن نراه أو نلمسه. . .

فنحن نحب الله دون أن نراه ونؤمن أنه يرانا، ونحب النبي محمدا (ص)ا دون أن نكون من أصحابه أو معاصريه! ومن المعلوم أن أعلى درجات الإحسان هي أن تحب الله كأنك تراه (...)

وإذا كان حب الله من الأيمان بوجوده فإن حب العربية هي بالضرورة من حب الله، لأنها هي الوسيلة الوحيدة التي تمكن من معرفة كلامه وبالتالي إلى إرضائه بعبادته، وهذا بنص كلامه الذي أمر به وحدده في كتابه بأفصح

عباراته: ((فإذا قرأناه فاتبع قرآنه)) (القيامة / 18) ((ورتل القرآن ترتيلا)) (المزمل / 4) وكما ورد في الحديث الشريف أيضا عن النبي (ص) قوله: ((خير الذكر تلاوة القرآن)) و ((خيركم من تعلم القرآن وعلمه)) وهذا من جوهر العقيدة، لأن كلام الله مجسد ومحدد في عبارات بعينها، فلا دخول في الإسلام بدون النطق بشهادة أن " لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله" ولا تصح هذه الشهادة شرعا بدون نطقها بنصها العربي، دون سواه، والقول نفسه ينطبق على تلاوة القرآن نصا في الصلاة (...)

وهنا تنتقل العربية من لغة للعرب وخدهم (كشعب وقوم كما يدعي بعض العلمانيين والقوميين العرب)... إلى لغة للأمة الإسلامية قاطبة: ((وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون)) (المؤمنون / 52) فالعربية من هذه الناحية هي مع دينها فوق جميع القوميات والأوطان والأجناس في العالم، والكرة عند المسلمين العجم، وليس عند المسلمين العرب الحقيقيين

فمثلما أن الإسلام دين عالمي، فالعربية لغة عالمية لكل انسان مسلم على وجه الأرض، دون أي تناقض أو تعارض بين التعايش اللغوي (الوطني والرسمي بين مواطني أية دولة في العالم) والتعايش اللغوي التعددي والتعبدي الديني باللغة العربية، لأي مسلم في العالم ((**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا**)) (سبأ / 28).

إن اللغة مثل العملة، ومثلما يمكن تعايش عملة محلية مع عملة عالمية أو دولية، يمكن أن تتعايش لغة محلية أو لغة وطنية مع لغة عالمية مثل الدين السماوي (العالمي) المرتبط بها والمرتبطة به ارتباطا عضويا كما هو مبين بالنص القرآني، واليقين الإيماني

فمثلما ينص القرآن على أن لا إسلام بدون التلفظ بالشهادتين، ينص كذلك على أن لا صاعة لله بدون صلاة (وهي الركن الأساسي في الدين) ولا صلاة بدون قرآن، أي بدون تلاوة النص العربي حرفيا (بالفهم أو بدون فهم)، وهذا مصداقا لقوله تعالي ((**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر**)) (القمر 17) وهو ما نلمسه كمعجزة من معجزات هذا الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه، حيث أن أي شخص في العالم يمكن أن يحفظ القرآن ويتلوه دون أن يفهم أي معنى من معاني عباراته، رغم فهم معنى الكلمات هن طريق الترجمة، وهذا من أسرار هذا الكتاب الرباني والبياني المعجز إلى يوم الدين، كما سنبين بعد حين وهذا من فضل الله على عباده، والدليل على ذلك أن هناك من الأطفال من يحفظ كتاب الله عن ظهر قلب، ويحصل على جوائز دولية، دون أن يعرف تكوين جملة واحدة سليمة باللغة العربية وهذه التجربة، كما يعرف الملايين من المسلمين تتكرر مل سنة في المسابقات الدولية للقرآن الكريم في كل أقطار العالم الإسلامي، ومن أشهرها وأهمها جائزة دبي السنوية للقرآن

الكريم في رمضان من كل عام(...).

ونعتقد أن الله عز وجل قد أوجب على المسلم الصلاة باللغة العربية وحدها دون أن تقبل إقامتها بأية ترجمة أخرى، لأن معاني القرآن الكريم لا يدركها بشر، وإذا كنا نعرف ما حدثنا الله به عنه وعن الأنسان وغيره كما يتبين من حواراته مع إبليس ومع آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والمرسلين... فإنه لا يمكن لأي إنسان أن يترجم عن الله إلى أية لغة بشرية، لأن في القرآن آيات: ((**هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب و آخر متشبهات فأما الذين في قلوبهم زيغ، فيتبعون ما تشابه منه ابتغاءء الفتنة، وابتغاء تأويله**)) (آل عمران/ 7) فالمحكمات للعبادة، والمتشابهات للإعجاز، وإعمال العقل من المهد إلى ما بعد اللحد ! ولقد برهن العلم في هذا القرن بالذات على أن القرآن بالفعل هو منجم لا تنقضي عجائبه في كل جزئية من جزئيات هذا الكون بما فيه جسم الأنسان ذاته، مصداقا لقوله تعالى: ((**سنريهم [في المستقبل؛ آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يبين لهم أنه الحق**)) (فصلت ا 53) .

ولذلك يصرح الله حول هذا الموضوع بقوله عن المتشابه في الآية ذاتها: ((**وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند رينا، وما يذكر إلا أولو الألباب**)) (آل عمران/ 7).

وإن الترجمة تفرض التأويل، وما دام التأويل مستحيلا ينص الآية ذاتها ((وها يعلم تأويله إلا الله)) فالترجمة مستحيلة أيضا . ومن ثم فلا يبقى الا تلاوة كلام الله بلغة التنزيل التي اختارها المنزل لكتابه ما دون (6700) لغة في العالم، والتي يعتبر اختلافها ذاته أية من آيات الله في الكون كما قال: ((**ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم وألوانكم**)) (الروم/22) .

والخطاب الإلهي هنا موجه للناس كافة، وليس للمسلمين والعرب خاصة، بحكم كونهم من قوم محمد العربي العدناني الذي جمع في أم القرى من آل بيته بين الأفريقي (بلال) ، والروماني (صهيب) والإيراني (سلمان) .

وما دام كلام الله كله متعبدا به، فإن الترجمة إن أمكنت بالنسبة للآيات المحكمات، وهي قليلة في القرآن، فإن المتشابهات لا يمكن ترجمتها على الأطلاق، بحكم قوله في الآية 7 من سورة آل عمران الأنفة الذكر والآية 23 من سورة الزمر، حيث يقول: ((الله نزل أحسن الحديث كتبا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد))،

حيث تبين نوعا من هذا الأعجاز الأبدي للقرآن الكريم من حيث كونها نطقا ثم لفظا ثم كلاما ثم حديثا ثم قولا . فلماذا هو أحسن الحديث ؟ لأنه كتاب متشابه أولا ومثاني ثانيا . وكل ما يشكل تفسيره لكونه يحتمل عدة معانى فهو متشابه، وكل ما يحتمل معنى واحد فقط فهو المحكم وهو المفسر. أما المتشابه فباب التأويل فيه يظل مفتوحا إلى يوم القيامة، وما من كتاب على وجه الأرض تجد في عبارته أو جمله أو آياته من المعاني المتعددة كخزين لا ينفد عطاؤه في الزمان والمكان إلا القرآن . ولقد أراد الله تعالى أن يجعل المعاني متواصلة إلى أن تقوم الساعة، ونحن نعلم أن البشرية تترقى كل يوم في علومها ومعارفها و اكتشافاتها، ولو قارنا بين عصر الرسالة وعصر اليوم لوجدنا الفرق شاسعا من حيث المعرفة والمعلومات . فالآية الواحدة يجب أن تعطي معاني بنسبة أقل أو أكثر على اختلاف مستويات السامع واختصاصه ومعارفه . فالمسلمون في عصر الرسالة حيث كانت الأمية متفشية فهموا من الآيات ما ناسب علمهم ورأوا إعجاز القرآن وفصاحته وعظمته وآمن المشركون لقوة بيانه وبلاغته لا نهم كانوا أهل لغة وفصاحة وبيان . ثم جاءت الأجيال بعدهم فاكتشف كل جيل معاني مختلفة تضاف إلى ما اكتشفه السابقون في العصر الأول .

وفي القرآن الكريم تشابه لفظي ومعنوي وإعجازي ومعرفي وعلمي جعل عجائبه لا تنقضي إلى يوم القيامة وجعله لا يخلق عن كثرة الرد، بحيث سيكتشف كل عصر في آياته ما يناسب علومه وهكذا إلى قيام الساعة، وهو ما يحتم بقاء اللغة العربية إلى يوم الدين، لأن كتابها لا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه أبدا !

إن العبادة هي علة وجود البشر، بنص قوله تعالى: ((**وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون**))، وخاصية النطق والبيان، عن مكنون الأذهان، هي سمة جوهرية فارقة ومميزة للإنسان عن الحيوان، كخاصية الاعتقاد والأيمان بالغيب، والقدرة على تجريد المعاني الكلية من المحسوسات والتعبير عنها بالكلمات، التي يعجز عن القيام بها كل ما دونه من المخلوقات . . . فإن أول رسالة للبشرية بدأت بالخطاب، بدليل أن أول إنسان علم البيان ولقن الأسماء ووهب اللسان، كما يتجلى ذلك في قوله تعالى : ((**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم**)) (إبراهيم/4).

وفي ذلك دليل على أهمية تبليغ الرسالات، ومنهج السماء الذي جاء به الأنبياء والمرسلون، ودور اللسان الذي يمثل الأداة الأولى في الخطاب، والمقصود باللسان في القرن هو اللغة وحاسة الذوق في الوقت ذاته، كما تعبر عنه الآية: ((**ولسانا وشفتين**)) (البلد/ 9) .

علما أن لفط ((اللغة)) لم يرد ذكره في القرآن أبدا، وقد أتى ذكرها دائما متضمنا في لفظة ((اللسان)) كما هو واضح في الآيتين المذكورتين ((ولسانا وشفتين)) و((و ما أرسلنا من رسول إلى بلسان قومه))

وهذه الآية الأخيرة تدل على أن الله سبحانه وتعالى يهدف من وراء إرسال الرسل بألسنة أقوامهم إلى التأكيد على أهمية الخطاب، ودور اللسان في الجدل بالحجة العقلية والبرهان والأقناع بالمنطق، والأفهام والشرح من باب ((خاطب الناس بما يفهمون)) عن طريق الرسول الذي يبعث من بينهم وبلسانهم. . . حتى لا يقولوا لم نسمع الكلام، أو لم نفهم لغة الخطاب، ولذلك جعل الله الرسل من البشر وجعل العنصر الإنساني والعنصر اللساني أو الخطابي، هما جوهر الرسالة الربانية في ضبط وتبليغ التكليف للبشرية، لأداء المهمة التي خلقوا من أجلها، وهي العبادة والاستخلاف .

كما أن كل ما أنزل في القرآن وما أرسل من رسل كان مبنيا على التبليغ بالكلام، بدليل أنه لم يبعث رسولا فاقدا لحاسة السمع والنطق، لكون رسالة الرسول الأساسية هي البلاغ، بنص قوله تعالى: ((**وما على الرسول إلا البلاغ**)) (العنكبوب/ 18) و((إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر)) (الغاشية /22) وقوله ((**وما ينطق عن الهوى إن هو وحي يوحى**)) (النجم / 3.4) .

وهل يوجد بلاغ للشعوب والأمم بغير الوسيلة الأولى للتبليغ، وهو الخطاب الشفاهي أولا، ثم المقروء بعد تقدم البشرية واختراع الحروف، مثلما هو معمول به في القرآن الكريم .

وعن حتمية بقاء اللغة العربية وصمودها الأبدي لارتباطها بالدين الخاتم الذي ارتضاه الله لعباده، يقول الأستاذ سعيد العرفي: ((إن هذه اللغة العربية القيمة، بسبب المزايا التي ذكرناها سابقا، قد جعلها الله اللسان العام للذين يدينون بالشرع الاسلامي، ويتبعون محمدا (ص) ، لذلك أوجب تعلم جزء منها على جميع المسلمين.

وهذا يدلك على أن لها مكانة سامية عند الشارع، ولقد بلغ من اهتمامه بها أن افترض لأجلها قراءة القرآن في الصلوات، الفرائض والمندوبات. ومن المعلوم أن القرآن لا يصح أن يقرأ بغير اللغة العربة، كما أن مما لا يجهله أحد ، أن كل مسلم عاقل بالغ، تجب عليه الصلاة، لا فرق بين ذكر وبين أنثى، وسواء أكان حرا أم عبدا .

فإذا تعلم المسلم مقدارا من القرآن، فإن ذلك يسوقه إلى تعلم القرآن كله. فمعرفته اللغة العربة، تعلمه الأحكام الألهية وخطاب الله تعالى له بالأوامر والنواهي، لأن هذا هو المقصود من قراءة القرآن. ولذلك عاب الله على من أغفل تدبر آياته، فقال: ((**أفلم يدبروا القول أم جائهم ما لم يأت به آبائهم الأولين**)) (المؤمنون / 68)، بل حث الله على التدبر الذي جعله سببا لنزول القرآن، قال تعالى: ((**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا أياته وليتذكر أول الألباب**)) [ص / 29]، ومما لا نزاع فيه، أن تدبر قوله أو فهمه يقتضي معرفة تلك اللغة التي صدر فيها. فلذا يستفاد من هذه الآية الكريمة صراحة وجوب تعلم اللغة العربية نطقا وفهما وما ذلك إلا لأن لغة القرآن هي اللغة الجامعة للشعوب الإسلامية، والمقربة بينهم في التفاهم والتخاطب، كما أسلفنا.

إن الدين الإسلامي جاء لدعوة جميع الخلق، لا فرق بين شعب وآخر، ولا بين عنصر وغيره. وإن في الدعوة إليه والدخول فيه الاستعادة من مزاياه السامية، يتساوى فيها الأبيض والأسود، كما يتساوى في أحكامه العادلة أبناؤه وأعداؤه . لذلك ألزم الداخلين فيه، المؤمنين به، والقائمين بأحكامه، تعلم اللغة العربية و التعلق بها في أعز الأماكن وأشرفها، وهو الوقوف بين يدي الله تعالى، لأداء العبودية، ولم يتقبل عبادتهم (ما داموا قادرين على النطق والتعلم) الا بقراءة كلامه تعالى، الذي كان برهانا ساطعا على شرف اللغة العربية التي اتسعت له))[28] .

ولهذا السبب وغيره في اعتقادنا، يتكالب كل الأعداء على هذه الأمة، فأوجدوا لها زعماء يراهنون على التعريب (من داخلها) قصد ضرب الإسلام باللائكية، وعملاء للتنويب والترهيب (الفرنكفوني والأنجلو فوني) ، قصد ضرب العربية في أعماقها، إدراكا منهم بأن العلاقة بين الإسلام والعربية هي علاقة عضوية ربانية مثل علاقة الروح بالجسد، وعلاقة الأسمنت بالماء.

فضرب الإسلام يضعف العربية، وضرب العربية يضعف الإسلام، ومثلما لا يمكن فصل الروح عن الجسد دون وفاة الشخص، فلا يمكن أيضا فصل الحروف العربية عن ألفاظها دون ضياع المعاني القرآنية السامية، هذه هي الحقيقة التي لا نمل تكرارها والتأكيد عليها مدى الحياة، لأنها هي الحياة !!

للغة العربية علاقة بالذات والشخصية والهوية الثقافية بالنسبة لجميع المسلمين فضلا عن العرب بدليل أن كتابة ((حلال)) في كل المطاعم والقصابات في العالم الإسلامي باللغة العربية هي موجهة للمسلمين أساسا وليس للعرب وحدهم الذين ليسوا كلهم من أتباع الدين الخاتم، بنص القرآن ذاته ((**لا إكراه في الدين**)) (البقرة ا 256)، وهذا هو الحاصل مع العرب من الباقين على دين موسى وعيسى عليهما السلام ((**ولكل جعلنا شرعة ومنهاجا**)) (المائدة / 48) ، لكن مع ذلك تكون العربية لهؤلاء غاية مثل الهوية والسيادة الوطنية والقومية، أما المسلمون من غير العرب، فتمثل لهم اللغة العربية وسيلة نات طابع مقدس، بدليل أن المسلم لا يرتاح للحلال إلا إذا كان مكتوبا بلغة الحلال، في كل مكان من هذا العالم! من طوكيو وبكين وموسكو إلى باريس ولندن وروما ومدريد وواشنطن وميلبورن ...!

وذلك لا ن محمدا العربي (ص) بعث للناس كافة وليس للعرب وحدهم كما قلنا، بدليل أن عمه أبا لهب ظل كافرا خارج الأمة، ودخل صهيب (الأوروبي) وسلمان (الأسيوي) وبلال (الأفريقي) في أمة الإسلام وشهد وأذن وصلى بلغة القرآن ! .

فإذا كان حب الوطن من الأيمان (كما ورد في الأثر) فإن هوية الإنسان المسلم هي وطنه الحقيقي حيث أين ما حل وارتحل واستقر فوق هذه الأرض بدولها وجنسياتها المختلفة، والجنسية الوطنية أو السياسية هي غير الهوية الثقافية بطبيعة الحال[29] ! .

فدين الإنسان هو هويته الحقيقية ووطنه الثابت والمستقر في قلبه، ومن ثم فإن اللغة العربية هي إحدى مقومات الإسلام ووسيلة فعالة من وسائل التفاهم بين المسلمين وصلة المسلمين بالله عن طريق الصلاة (...) وصلتهم بهويتهم الدينية والثقافية، وليس بجنسيتهم السياسية، التي قد تختلف من بلد إلى آخر (كاختلاف الأعلام والأسماء والعملات) ذلك أن الثقافة لا علاقة لها بالعرق واللون ومكان الميلاد الجغرافي، وإنما علاقتها فقط بالأشياء المكتسبة وحدها كالدين واللغة والعادات والتقاليد التي تعطي لكل أمة هويتها التي تميزها بين سائر الأمم كما يتميز الفرد ببصماته الخاصة، أو بشفرته الوراثية بين جميع الأفراد في هذا الكون ماضيا وحاضرا ومستقبلا!![30] .

وبما أن هوية الشخص هي وطنه الحقيقي، وبما أن الهوية في جوهرها ذات محتوى ثقافي، والثقافة في أهم عناصرها ومكوناتها الأساسية هي دين ولسان وسلوك مرتبط عضويا بهذين العنصرين الأساسيين[31]، ونظرا لأن لسان الإسلام هي لغة القرن كما أثبتنا ، فإن حب لغة القرن، الذي هو أساس هوية المسلمين، هي من الأيمان بالضرورة، مثل حب الوطن المادي تماما دون أن يتعارض الأثنان في قلب الفرد المسلم، أيا كانت إقامته على هذه الأرض ...!!

فهنا وطن مادي جغرافي، وهناك وطن معنوي شخصاني ثقافي، وحيثما يكون دين الإنسان ويسر له الله رزقه وعبادة ربه، كما أمر في كتابه، فثمة وطنه...

إن المحافظة على اللغة العربية جزء متفرع من حبها، والمحافظة عليها جزء من المحافظة على دينها، والمحافظة على دينها من المحافظة عليها، لأنه هو الذي يحفظها، ونعتقد أن من دلالات الأمر الإلهي في أول كلمة من الوحي المنزل على النبي الأمي في غار حراء ((**اقرأ باسم ربك**)) (العلق/ 1) بعضا من هذا المعنى، حيث أن من أسرار حفظ القرآن، وحث الله على تلاوته كما أسلفنا هو ضرورة الانطلاقة إلى القراءة، بعد الأمية والرواية السماعية ، هذه الأمية التي تتطلب الرواية الشفهية، وخاصة بالنسبة للمسلمين من غير الناطقين بالعربية ثم تأتي بعدها القراءة التي تتطلب الكتابة والتدوين لتشييد الحضارة. .. ربما كانت هذه النقلة الثنائية المزدوجة بين النقلي والعقلي، وبين السمعي والبصري، وبين الشفاهي والكتابي، هي في اعتقادنا من بين الأسرار التي حفظ بها العزيز الحكيم وحافظ على كلامه الكريم من الضياع والنسيان والتحريف والتزييف، لأنه ثبت بالتجربة أن أي إنقاص أو خطأ أو تغيير متعمد من أعداء الله لكتاب الله، يكتشف في الحال، ويكمل الناقص أو يصحح الخاطئ أو المحرف بفضل الحافظين، الأميين منهم والمتعلمين على حد سواء، ويبقى هذا الحفظ المعجز في الصدور قبل السطور، هو السر القائم، والحكم الدائم، في هذه النقطة إلى يوم الدين، لأنه هو الأساس بمقتضى نص قوله تعالى : ((**لقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر**)) (القمر/ 17) وقوله أيضا ((**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**)) (الحجر / 9) بالرواية والتذكير، وبالكتابة والقراءة والتفسير الذي يحقق التكامل في حفظه على حاله بين الأصم والضرير، والأمي والنحرير!!.

وإننا نعتقد أن تزويد القرن الكريم بهذه الأجهزة والأدوات العجيبة من صمامات الأمان ضد الزوال والنسيان، هي التي حالت دون تمكين الأعداء من تحريفه في الكتابة للأجيال القادمة، بعد سحب كل النسخ الصحيحة من

التداول في السوق . . .كما حاول أن يفعل ذلك مرارا بعض المغضوب عليهم من أعداء الله، كلما أحسوا بضعف المسلمين أو غفلتهم عن كتابهم في أي حين!!...

غير أن كل هذه المحاولات الماكرة كانت تبوء بالفشل الذريع ((ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)) (الأنفال/ 30)، وتكتشف في حينها بسبب حفظ المسلمين للقرآن في الصدور قبل السطور، سواء من أجل التعبد به في الصلاة، أم حتى قراءته على الأموات... وتتمثل مصداقية الحفاظ على اللغة العربية، والمحافظة على القرآن باللغة العربية، في ما يسخره الله لهذه اللغة وكتابها من أسباب ووسائل الانتشار في كل الأقطار، بفضل الاختراعات المتطورة جدا في مجال الاتصال والأرسال الفضائي (السمعي — البصري) الذي صير العالم بأسره مسجدا واحدا (بالنسبة للمسلمين) ووفر على العلماء والدعاة والقراء والمجودين. . . مشقة الضرب في الأرض، إلى أقاصي الدنيا، من أجل إسماع كلام الله لعباد الله، وأصبح بإمكان أي مقرء أو مجود للقرآن في أي مكان من العالم أن يسمع كل عباد الله أنغام لغة الجنة الا من أبى منهم!

وهو ما يؤكد مصداقية ما أراده الله أن يكون ويدل على أن نبي الإسلام، وآخر المرسلين محمد (ص) قد بعث إلى الناس أجمعين، كما ورد في التنزيل الحكيم: ((**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا**)) (سبأ / 28) و((**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا**)) (الأعراف/ 158) ويوحي بأوضح وأفصح بيان إلى تلك الإرادة الربانية التي لا راد لحكمها ولا حدود لطلاقة قدرتها. . . والمتمثل في قوله تعالى المذكور آنفا: ((**الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان**)) (الرحمن/ 1، 4) ، و((**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم**)) (إبراهيم 4) . ولذلك كتب الله للسان خطابه وبيانه هذا الصمود رغم كل الأعداء، من الأغراب والأبناء، ومن أهل الدار وذوي القربى والجوار، بما يضمن لهذه الوسيلة حتمية البقاء ومقاومة الغناء، لتأدية وظيفتها السماوية والأرضية التي خلقت من أجلها، وهو التلفظ بشهادة التوحيد لآخر آدمي مؤمن بالدين الظاهر على كل الأديان، وعلة نزول القرآن الذي يحمل إعجازه في ذاته، وتجدد معجزته في نصه، حيث يخاطب كل العقول والأذهان مع مسايرة التطور والتدرج في الخطاب حسب الزمان والمكان، تمشيا مع تطور عقل الأنسان في كل ميدان دون تناقض أو زيادة أو نقصان ((**ما فرطنا في الكتاب من شيء**)) (الأنعام 38) ، مما يثبت اكتمال الرسالة الخاتمة المستوعبة في القرآن الكريم التي كانت كلها خطابا معجزا ووعدا منجزا بالحق نابضا بالصدق موضحا لمعناه، محصنا لمبناه بالحفظ المؤكد في النص ذاته القائل: ((**إنا نحن نزلنا الذكر وإن له لحافظون**)) (الحجر/9) .

وعن قيمة اللغة العربية ودورها في ثقافة الأمة ووحدتها، فضلا عن علاقتها بكتاب الله الخالد والمخلد لها والحافظ، يقول الدكتور إبراهيم السامرائي " العربية إحدى اللغات الحية، وهذا يقتضينا أن نفهم فنسلم بأنها لغة متطورة تخضع لما تخضع له اللغات الحية عامة وهي إحدى اللغات السامية التي إندثرت معالمها كلها وانمحت أصولها فلم تبق منها الا هذه اللغة القديمة، ولابد من الاستطراد قليلا فأقول أنها الوحيدة بين المجموعة السامية التي ثبتت

على مر العصور في حين لم تثبت تلك اللغات، سيقول قائل أن العبرانية لغة قائمة وأنا أقول أن هذه العبرانية الجديدة ليست الا مادة جديدة أعيد بناؤها بصورة قسرية جبرية لتكون لغة مجاميع بشرية هي ليست لغتهم. . .

ولا بد لي أن أدع هذا الاستطراد الموجز فأعود إلى العربية لا قرر أنها اللغة الحية وأنها ثبتت إزاء العصور، وأنها كانت خير وسيلة للإعراب عن حضارات مزدهرة وآية ذلك أن العلم القديم بفكره وفلسفته وسائر ألوانه لم يكن له من وسيلة غير هذه العربية السمحة ولا أراني منساقا انسياقا عاطفيا حين أقرر أنها كانت سيدة لغات العالم القديم خلال قرون متلاحقة ابتداء من القرن السابع الميلادي، ومن أجل هذا فقد كتب المفكرون من غير العرب ونسوا لغاتهم وقرروا أن لا سبيل إلى الأعراب عن الفكر الفلسفي مثلا الا بهذه العربية. . .

ومن هنا كنا قد ورثنا هذه اللغة القديمة وكان لها من أسباب الحياة ما أعان على استمرارها بهيئة معلومة ذلك أننا معاشر العرب قد ورثنا تراثا ضخما هو مادة هذه اللغة، ولولا هذا التراث وعلى رأسه كتاب الله_ جل وعلا_ لآل أمر هذه اللغة إلى لغات عدة كما هي الحال مثلا في اللغات الرومانية التي تحولت إلى الرومانية والإيطالية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية.

لم يكن شيء من هذا في العربية، وذلك أن العربية مازالت لغة أمة بأسرها في بقاع فسيحة من العالم هي البلاد العربية، ولو عمل أهل العربية على رعاية هذه اللغة لكان لهم أن يوسعوا من هذه الرقعة فتعمم لغتهم في بقاع إفريقيا وغير إفريقيا ممن فطروا على الإسلام دينا وأمنوا به فكرا وسلوكا)) [32] .

وإذا كانت هذه الأحكام السابقة حول علاقة القرن باللغة العربية الصادرة عن المسلمين المؤمنين الذين قد يقال بأن حديثهم صادر عن عاطفة إيمانية قد تتغلب على صرامة العقل، فإننا نورد هذا الحكم الواضح الصادر عن بعفر أعلام الأمة من غير المسلمين، وهو يؤكد كلام الدكتور السامرائي السالف الذكر، ففي هذا تقول الأديبة اللبنانية النصرانية مي زيادة عن العربية وكتابها المنزل ما نصه : ((ومن ذا الذي لا يوافق المعتدلين من المحافظين على مفاخرتهم بهذه اللغة العربية التي تقبل علينا من أقاصي التاريخ وقد اندثرت جميع أخواتها السامية من آرامية وكنعانية وكلدانية وسريانية وسورية وعبرانية قديمة وغيرها، في حين هي، على رغم ما مر بها من عصور الركود والجمود ، ما فتئت تفيض قوة وحياة ؟

من ذا الذي لا يعرف للكتاب الكريم فضله في بقاء هذه اللغة حية ومن ذا الذي يجهل أن اللغة العربية باقية ما بقي الإسلام حيا؟

من ذا الذي لا يعرف ما أدته هذه اللغة من الخدم إلى العالم وبأنها كانت في حين ما الصلة الوحيدة بين حضارات الماضي وحضارات اليوم[33]؟».

ثم تضيف قولها : ((وعلى كل، فاللغة الفصحى يجب أن تبقى دائما الحصن المنيع الذي نحتمي فيه جميعا، والرابطة النفسية الغالية التي تجمع بين أهل الأقطار المتباعدة، والصيغة الجميلة الحية التي نودعها مكنونات العقول والقلوب جيلا بعد جيل حتى انتهاء الدهور)).

ليست اللغة أداة تعبير وكفى كما يزعمون. بل هي فكرة وعاطفة وعلم وشوق ومطمح وفن وأمل وألم. هي صورة لكل شخصية كما هي صورة لكل زمن. هي ملك الجميع وهي ملك كل فرد ورثها فورث معها الحق في استعمالها للتعبير عن حياته الخاصة. وإذ يتصرف الفرد بحقه هذا يكون في نفس الوقت قائما بواجبه نحو ماضي اللغة ومهيئا لها مستقبلا لا يكون محض صدى وتقليد وترجيع بل يكون صوت حياة وإبداع وتوقيع[34]،.

ويشهد بهذا الخلود الرباني أيضا، الباحث المسيحي ستيوارت ضود بقوله: ((وجدير بنا أن نتذكر أن لغة القرآن، وهي عربية فصحى، تدرس حتى الأن في أنحاء العالم الإسلامي كافة، مما جعل اللغة العربية من الناحية الدينية والثقافية في مركز فريد لا تتمتع به بقية اللغات الحية. وهذا ما جعل إدخال أية تغيرات هامة فيها مستحيلا. ومن جهة ثانية فإنه يشك إذا كان هنالك من يقبل أن تحل اللغة الدارجة محل اللغة الفصحى، لأن الأولى قد اتخذت لهجات مختلفة في النطق بين الشعوب العربية في مصر والعراق ولبنان والشام وشمال إفريقيا وغيرها . زد على ذلك أن العربي الذي يستطيع أن يقرأ القرآن الكريم ويفهمه، لا يكاد يستطيع أن يفهم كلمة من اللغة الدارجة المستعملة هنا وهناك في أنحاء الشرق العربي)) [35].

ويضيف هذا العالم العربي النصراني الأصيل قوله أيضا: ((فيما مضى من تاريخ العرب والمسلمين انتشرت العربية في جميع أصقاع الأرض ولم توازها في الانتشار لغة أخرى لا في الماضي ولا في الحاضر، ولن توازيها حتى في المستقبل. ويكفي أن نلقي نظرة على المساحات السكانية على هذا الكوكب الذي انتشرت فيه هذه اللغة سواء بنطقها أم استعمال حروفها فهي ما زالت لغة المسلمين جميعا إلى جانب لغاتهم المحلية ومازالت الحروف العربية أيضا معتمدة في الكثير من هذه اللغات .

وبالرغم من الوهن السياسي الذي اعترض الأمة العربية فقد أخذت اللغة العربية مكانها بين اللغات الأساسية في هيئه الأمم المتحدة ومؤسساتها .

وإذا فتحنا معجم الأعلام لفردناند توتل الملحق بالمنجد لويس معلوف وطالعنا كلمة (جامعة) نجد أنه لا توجد جامعة في الشرق أو الغرب أو قارة من القارات إلا وقد خصصت فيها كرسيا لتدريس اللغة العربة أو الأدب العربي أو العلوم الإسلامية))[36].

وفي الختام نقول : إن كل ما ترجوه أمة الضاد من أبنائها المخلصين اليوم هو العمل على جميع الأصعدة والمجالات والمستويات من أجل تحقيق الكيف بعد الكم المضمون لضمان المستقبل النوعي المأمول لها ولهم في عالم لا يرحم الضعفاء والصغار ولا يحترم الا الأقوياء والكبار!!.

ونؤكد هنا أن الجغرافيا في الكون مثل الجسد في الأنسان . . . فهي جماد يتحرك خارج إرادة المخلوق في غالب الأحيان، لكن التاريخ وعي وعقيدة وإنجاز إرادي لا إكراه فيه. . . وكما أن الروح هي التي تحرك الجسد في الأنسان، فكذلك التاريخ هو الذي يتحكم في جغرافية المكان . وأبرز مثال على ذلك تاريخ وجغرافية الإسلام في الأندلس مع الاسبان في غرناطة اثم في بجاية وفي تونس وفي وهران (...)

فإذا كان الجسد يخضع للمرض والاعتقال، والجغرافيا تخضع لقانون الزلازل والبراكين وتحرك طبقات الأرض رغم إرادة الإنسان . . . فإن التاريخ كله إرادة وفعل وإنجاز في المكان والزمان . . .

ولئن كان العالم يعرف تاريخ الزلازل. . فإنه لم يعرف ولن يعرف زلازل التاريخ، لأن هذا الأخير ذو طبيعة سامية فوق المادة الجامدة، ويتم دائما بوعي وإرادة من صانعيه، وليس مغروضا عليهم من فوق أو من تحت!! وأن أي فعل يفرض على الأنسان بالقوة والإكراه، هو أشبه بالاعتقاد أو الزلزال... لا يلوم التاريخ من يكره عليه، بل هو يجرم ويحاكم ويعاقب فقط من يخير ويختار فيه!!

ورغم ذلك، ستسود العربية بفضل الله وسيفرح المؤمنون بنصر الله، لأنه هو القائل عزت قدرته : ((**يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**)) (الصف /8.9) ،

وظهور الإسلام هو ظهور بالقطع للغة الإسلام في كل أقطار العالم، مصداقا لقول نبيه الكريم: ((إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض)) (رواه مسلم حديث 2289) . ومن ينظر إلى الإحصائية الرسمية لوزارة الحج للعام الهجري (1428) يجد أن عدد حجاج بيت الله الحرام، قد باغ 3,5 مليون حاج، قدموا إلى الأراضي المقدسة من 189 دولة، علما أن عدد الأعضاء في منظمة الأمم المتحدة، في الوقت الحاضر هو 192 عضوا، ولهذا الرقم دلالة ناطقة تغنينا عن أي تعليق!

ونختم حديثنا عن هذه الحتمية في ظهور دين الله ولسان كتابه على العالمين، كما هو مقرر في الآليتين السالفتين، فنقول: إن كل رسول له معجزة مرافقة ومدعمة للرسالة التي تضمنت منهجه (في إفعل ولا تفعل)، الا النبي الخاتم (ص) الذي ليس بعده نبي جديد أو منهج جديد... فجاءت معجزته في نص خطاب منهجه، وما دام هو آخر الأنبياء والمرسلين، فلا بد أن تظل معجزته حية دائمة، خالدة، ناطقة، ظاهرة، ولا يمكن أن تبقى كذلك الا بالاهتمام بهذا الجانب الإعجازي في القرآن الذي سيظل مجهود كل العلماء والدعاة منصبا عليه لفهم محتواه

ونقله لكل العقول المتفتحة والمتعطشة إلى معرفة الحق، وهذا جزء من الدعوة التي يقوم بها علماء الإسلام الذين قال عنهم النبي ((إن علماء أمتي مثل أنبياء بني إسرائيل)) . فالعالم هنا هو خليفة النبي إلى الأمة المحمدية، وبالتالي إلى البشرية، لأن الإسلام هو دين العالمين جميعا بنص الآيتين: ((**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا**)) (**سبأ / 28**) ((**قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا**)) (الأعراف/ 158)، وقوله تعالى أيضا: ((ومنهم من يؤمن به، ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين، وإن يكذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون)) (يونس ا 40، 41)، إشارة إلى توضيح حدود هذا الدين الخاتم، ذي المعجزة القائمة المتجددة مع الأيام، وتبدل الأحوال على الدوام، حيث أن كل معجزاته كلام وخطاب، ولا يطلب من مؤمن أن يؤمن بأية معجزة مادية سوى كلام الله، الذي تتجسد فيه الثلاث آيات مجتمعة. ففيه آيات القرآن المعجزة بالبيان، والآيات المتعلقة بعجائب الكون ونواميسه التي تحدث عنها القرآن بصفة علمية دقيقة وقطعية، قبل حدوثها واكتشافها بقرون، ثم وقعت بعد ذلك مثلما وصفها بإعجاز ودقة لا نظير لها، وبهذا تتحقق المعجزة المادية وتخرج من المعجزة الخطابية البيانية ذاتها، بحكم تحققها في السنن الكونية، مصداقا لقوله تعالى: ((**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**)) (فصلت / 53) ، وهي كما نرى آيات نزلت خطابية، ثم أصبحت مع تقدم العلم، وتطور وسائل البحث في مختلف مجالات الكون معجزات مادية ملموسة، مثل معجزات الأنبياء التي حدثت لا قوامهم من أجل تصديقهم. . . فهي آيات مادية إذن، أثبتتها آيات قرآنية أو بالعكس، أي أنها آيات قرنية تجسدت في آيات مادية، مما جعل القرآن بهذا المعنى حجة مضاعفة متكاملة في مسألة الأعجاز والأقناع، وجعل القرآن حيا ناطقا بالحق، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد وتفسيره متروك للسان الزمن ولسان العرب ! !

ولهذا كان القرآن هو الخطاب الوحيد الذي خص الله نفسه بحفظه من التحريف والتزييف، ليبقى نبيا مرسلا، يتحرك وينطق ويخاطب الناس بالحق والصدق في كل حين، ويتحدى كل العلوم والآلات والعقول . . . بينما كل الكتب الأخرى المنزلة على الأنبياء والمرسلين، قد عهد الله بمهمة حفظها للمؤمنين من أهلها كما قال : ((**إن أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار، بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء**)) (المائدة ا 44)، فلم يحفظوها، وقد حرفها المنحرفون منهم كما هو معلوم، بنص القرآن ذاته في قوله تعالى : ((**فبما نقضهم ميثاقهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به**)) (المائدة /13)، وقوله أيضا: ((**من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين**)) (النساء / 46) ، وهنا تكمن الإرادة الربانية التي تعهدت بحفظ اللغة العربية، بحفظ النص المقدس له بها ولها به إلى يوم القيامة كما قلنا!! وأكرر هنا في هذا السياق ما قلته منن عشر سنوات[37]) ((بأن هناك أربع لغات لها البقاء والخلود في الوجود وتسود العالم في المستقبل أكثر من غيرها، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهي الصينية (بحكم الديموغرافيا) ، والإنجليزية (بحكم السياسة

والتجارة والتكنولوجيا) ، والإسبانية (بحكم الجغرافيا) ، والعربية (بحكم تعاليم الدين الإسلامي الحنيف وشريعة السماء)) .

وإذا تحقق الاستقلال الحضاري والشخصاني الذي تطمح إليه كل الشعوب الإسلامية وتجاهد طلائعها من أجله، فستصبح العربية لغة علوم وتقنية وحضارة راقية مثلما كانت لعدة قرون (من دمشق وبغداد وقرطبة وبجاية وتلمسان والمهدية والقيروان إلى القاهرة وطاشقند وسامرقند ...)، زيادة عن كونها لغة عقيدة ورسالة سماوية خالدة مرتبطة بالعالم العلوي، الذي لا دخل للمخلوق في شأنه، ينيف معتنقوها في الوقت الحاضر عن عدد سكان الصينذ١تها!! ومنتشرة جغرافيا مع الإسلام في جميع قارات الكرة الأرضية بكيفية تفوق انتشار اللغة الإسبانية أيضا بأضعاف مضاعفة!، حيث تبلغ مساحة العالم الإسلامي أكثر من 32 مليون كيلومتر مرح!!

وإن هذا الكلام الذي أثبتناه بنصه هذا لأول مرة، في كتابنا "اشهدي يا جزائر " قد أكدته دراسة مستقبلية حول خريطة اللغات في العالم، قامت بها العالمة الأمريكية (كوليت غرينفالد) العضوة بمنظمة اليونيسكو جاء فيه (أكدت العالمة اللغوية كوليت غرينفالد العضوة بمنظمة اليونيسكو في حوار نشر بجريدة "لومند" يوم 31 ديسمبر 2005 على أنه في العام 2050، عشر لغات هي الأكثر انتشارا في العالم، وهي: الصينية ثم الهند وأوردية والعربية، والانجليزية، والاسبانية، والبنغالية، والروسية، واليابانية، والمالية.) [38]

هذه هي إرادة السماء في حفظ البقاء للغة البيان والوضوح والنقاء... لكن المهمة الملقاة على عاتق المسلمين (عربا وعجما) والعرب غير المسلمين على حد سواء، هو مطابقة لغة العبادة بلغة الحياة في كل مجالاتها، مثلما كانت لعدة قرون، قبل تخلي العباد عن مواصلة الحضارة، واستغلال عطاء الربوبية مثل الأجداد، حتى يظلوا دائما في الموعد، ولا يتخلون عن الترتيب الذي احتلوه في التاريخ، وتقدم الحضارة الإنسانية، علما وقولا وعملا بكيفية متساوية ومتوازية... وفي هذه الحالة تظل المسؤولية ملقاة كلها على عاتق الناطقين بالعربية (مسلمين وغير مسلمين)، وليس على اللغة العربية في ذاتها بأي حال من الأحوال، لأن اللغة هي ظل لأهلها، وهي ويلة وغاية في ذاتها، ولا يستقيم الظل والعود أعوج، بقطع النظر عن سبب هذا الاعوجاج والانبعاج، فهل هو من الأعداء الغرباء في الخارج، أو من الأعداء " الوكلاء" والعملاء من الداخل.

إن الله لم ولن يخلف وعده بحفظ كتابه فيما يتعلق بعطاء الألوهية، لمن المسؤولية تظل ملقاة على عاتق أهل هذه الأمة لتكون على الأقل مثل جميع الأمم الحية الواعية، التي استغلت عطاء الربوبية (الشمس، المياه، والثروات الباطنية...) والتي تبقى فيها القاعدة الذهبية الربانية التي تنطبق على واقع أمتنا هي: ((إن الله لا يغير ما بقوم حت يغيروا ما بأنفسهم)).

فالله دائما عند وعده، فهل أبناء هذه الأمة المعاصرين، يكونون في مستوى أمتهم التي يحملون اسمها واسماءها، والتي شرفهم الله بقرآن فيه ذكرها وذكرهم إلى يوم الدين، وهو الصادق الوعد الأمين والغالب على أمره في جميع الأحوال، ولذلك فإن اللوم الأول والأخير يكون على الخوالف وحدهم الجامدين أو المتهاونين والخاذلين لأمتهم ولسان دينهم ما دون كل الأمم الحية في العالمين، وإن القانون الحضاري لا يحمي المغفلين والمتخلفين أو المتواطئين مع الأعداء المراهنين على زوال لسان القرآن الذي كتب له الخلود في الوجود إلى يوم الدين كما أثبتنا، والتاريخ يبقى دائما هو الشاهد الأمين والحكم النزيه بين المراهنين من كلا الطرفين.

الجزائر في الأول من رمضان 1429 هـ

الهوامش

[1]- نور الدين حاطوم، تاريخ القوميات في أوروبا، الجزء الثالث، دار الفكر، دمشق، الطبعة.2، 1979، من ص؛ 2.13 — 2.53.

[2]ساطع الحصري، ما هي القومية؟، دار العلم للملايين، بيروت، بدون تاريخ، ص؛ 56 —60.

[3]د. صلاح العقاد، دراسة مقارنة للحركات القومية، معهد البحوث والدراسات العربية، 1967، ص 10.

[4]في سبيل البعث، ج3، طبعة بغداد، 1987، ص 68.

[5]جريدة النهار، 1982./06/06م.

(*) أقصد هنا الرئيس السوري، وكأنه العربي الوحيد الذي يعرف معنى السيادة اللغوية في هذا العالم المسمى عربيا بجامعته العربية (السياسية)!!

[6]العلاقات الاجتماعية في الشرق العربي، ترجمة فريد النجار، دار الكتاب، بيروت 1974، ص 2.95.

[7]د. محمود السعران، اللغة والمجتمع، المطبعة الأهلية، بن غازي 1958، ص 105.

[8]د. كمال يوسف الحاج، فلسفة اللغة، دار النشر للجامعيين، بيروت 1956، ص 34..

(*) هذا خطأ شائع حتى لدى بعض الكتاب الكبار، والأصوب هو قوله استبدال الأنكليزية بها (أي بالعربية)، لأن الباء تنهب مع المتروك، مثل قوله تعالى على بني إسرائيل؛ ١٦ءتسسدذودأ ١الذي هو ١ذف بالذي هو خير) (البقرة/ 61).

[9]اللغة العربية، منشورات وزارة الثقافة السورية 2.004، القسم الثاني، ص 3-5.

[10]نفس المرجع السابق، ص 5.

(*) هذه العبارة تعني الكلام العربي المكتوب بالحرف السرياني.

[11]نفس المرجع السابق، ص 7.

[12]اللغة العربية، نفس المرجع السابق، ص 9.

[13]من كتابه ((مستقبل الثقافة في مصر)، ج.2، ص 32.6.

[14]عن مجلة ((المجمع العلمي العربي))، دمشق، نيسان، 1957.

[15]ساطع الحصري،((آراء وأحاديث في اللغة والأدب))، دار العلم للملايين بيروت 1958، ص 72، 73.

[16]انظر تفصيل هذا الموضوع في كتابنا((التعريب بين المبدأ والتطبيق))، الطبعة الثانية، دار الأمة، الجزائر 1995.

[17]انظر تفصيل هذا الموضوع في كتابنا((هل نحن أمة؟))، دار الأمة، الجزائر 1997.

[18]راجع كتابنا((مصير وحدة الجزائر بين أمانة الشهداء وخيانة الخفراء؟؟)) دار الأمة الجزائر 2.005.

[19]بحث للدكتور علي لغزيوي في ندوة الرباط، حول اللغة العربية إلى أين؟ بتاريخ 1—3 نوفمبر.2.002.

[20]اللغة العربية، الجزء الأول، مرجع سبق نكره، ص 155.

[21]نفس المرجع، ص156.

(*) يقصد أن اللغة المكتوبة غير اللغة المتداولة شفهيا في إطار الثنائية الواقعة بين العامية والفصحى. وحول ذلك يقول مصطفى صادق الرافعي؛ (ءبيد أن العربية لا يأتي لها بحال من الأحوال أن تغلب على كل اللهجات العامية وتستغرقها وتأخذها بدين التوحيد، فما ذلك في طبيعتها، ولا هو في طبيعة الناس)).

[22] اللغة العربية، الجزء الأول، مرجع سبق نكره، ص 158.

[23]نفس المرجع، ص 163.

[24]اللغة العربية، الجزء الأول، مرجع سبق ذكره، ص 153.

[25]اللغة العربية، نفس المرجع السابق، ص 17

[26]. راجع العلاقة العضوية بين الإسلام والعربية في كتابنا((كيف صارت الجزائر مسلمة عربية))، دار الأمة، الجزائر 1996.

[27]اللغة العربية، القسم الثالث، مرجع سبق ذكره، ص 134.

[28]اللغة العربية، القسم الأول، مرجع سبق ذكره، ص 2.57.

[29]راجع كتابنا((الهوية الوطنية الحقائق والمغالطات))، دار الأمة الجزائر 1996.

[30]نفس المرجع المذكور.

[31]انظر كتابنا((هذي هي الثقافة))، دار الأمة، الجزائر 1997. (.32) ((مقدمة في تاريخ العربية))، بغداد 1979، ص 175.

[32] مقدمة في تاريخ العربية بغداد 1979 ص: 247

[33]نفس المرجع السابق.

[34]اللغة العربية، القسم الأول، مرجع سبق نكره، ص 2.47.

[35]نفس المرجع، ص.2.52.

[36]العلاقات الاجتماعية في الشرق العربي دار الكتاب — بيروت — 1947، ص 165.

[37]انظر مقدمة كتابنا((اشهدي يا جزائر))، دار الأمة الجزائر 2.001.

[38]نقلا عن جريدة ((الشروق اليومي)) الجزائرية في 2.006/01/15.